مختصر

مدخل إلى القرآن الكريم

عرض تاريخي وتحليل مقارن

بسم الله الرحمن الرحيم

د. محمد عبد اللَّه دراز

مَدخل إلى
القُرآن الكريم

عرض تاريخي وتحليل مقارن

ترجمة وتلخيص

محمد عبد العظيم علي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

- ٢٠١٩م

مقدمة المختصر

على الرغم من مرور ما يقرب من نصف قرن على هذا البحث العظيم، فإن نتائجه لا تزال غير معروفة وغير متداولة فى أوساط المسلمين رغم أهميتها وضرورتها، ولا سيما فى هذه الأيام العصيبة وهذا الجو العالمى المشحون ضد الإسلام، مما استدعى إعداد تلخيص لهذا البحث العظيم، لتعريف اكبر قطاع من قراء العربية بالجهود العلمية لأحد اكبر علماء المسلمين الأجلاء فى هذا العصر، وتقديم هذا «المختصر» للقارىء الكريم فى حجم صغير، وأسلوب سهل، وعرض مبسط، تقريباً للافهام، وتعميماً للفائدة، وإسهاماً فى صد ما يواجه العالم الإسلامي من تحديات، ولكى يرى الناس جميعاً الوجه الحقيقي للقرآن الكريم الذى ما أنزله الله إلا رحمة للعالمين.

ورحم الله فقيدنا الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، وأجزل له الثواب على ما بذله فى خدمة الإسلام والمسلمين..

والله ولي التوفيق

الإسكندرية في: ١٠ نوفمبر ٢٠١٧

الموافق ٦ ربيع الأول ١٤٣٩

محمد عبد العظيم عليّ

ملخص مقدمة المؤلف

نستطيع دراسة القرآن الكريم من زوايا متعددة، ولكنها تنتهي إلى قطبين أساسيين..اللغة والفكر. فالقرآن الكريم كتاب أدبي وعقيدي في نفس الوقت وبنفس الدرجة. أما الجانب الثاني فهو هذا الكنز من الأفكار الذي يتكشف من خلال أسلوبه الأدبي الرفيع والذي سنعرض هنا لثلاث مجموعات منه. الأولى: طبيعة دعوته أي مجموعة الحلول التي يقدمها للمشكلتين الخالدتين، ألا وهما المعرفة والسلوك. والثانية هي أساليب الإقناع التي يستخدمها لإثبات صدق دعوته. وأخيرا البراهين التي يدلل بها على الطابع الرباني المقدس لرسالته.

وفي الحقيقة كان الغرض المبدئي من هذه الدراسة هو استخلاص قانون الأخلاق القرآني بعيداً عن كل ما يربطه بباقي القرآن الكريم، وهو العمل الذي خصصنا له كتاباً آخر (ترجم إلى العربية بعنوان : دستور الأخلاق في القرآن). غير أننا رأينا من المفيد عرض الخطوط الرئيسة لهذا البناء الفكري الشامخ، وتوضيح مكان العنصر الأخلاقي داخل الإطار الكلي، فضلاً عن استخراج الأفكار الرئيسة الموجودة في كل جزء من أجزاء كتاب الإسلام.

وبعد تقديم عدة نقاط تاريخية بناء على اقتراح «مسيو موريس باترونييه دي جاندياك» الأستاذ بالسوربون.

فإن الموضوع الجوهري لبحثنا هو عرض رسالة القرآن الكريم في جملتها كما يعرضها القرآن نفسه، لا كما وردت من خلال الأحكام أو التفسيرات أو التطبيقات التي اختلفت نسبة إخلاصها عبر التاريخ. وسنقابل في طريقنا بشأن القرآن إما بعض الأحكام القاسية فنصححها أو بعض الاستنتاجات العاجلة فنقومها. وفي كل هذا سنترك القرآن ليتولى الدفاع بنفسه عن نفسه ويقدم الحجة تلو الحجة.. تاركين للقارئ الفرصة ليقدر بنفسه قيمة هذه الحجج تاريخياً وفلسفياً.

وجدير بالذكر أن استخلاص فكرة القرآن من غلافها وإخراجها على هذا النحو من إطارها المحلي لتقريبها إلى الفكر الأوروبي البعيد عن اللغة العربية، هو تحقيق لجزء من رسالة القرآن الحقيقية. لأن القرآن يقصد الإنسان حيث يكون وإلى أي جنس ينتمي. وذلك حين يوجه نداءه إلى العقل والذوق السليم والشعور النبيل في الإنسان. إن القرآن دعوة عالمية تهدف إلى تطهير العادات وتوضيح العقائد والتقريب بينها، وإسقاط الحواجز العنصرية والوطنية، وإحلال قانون الحق والعدل محل قانون القوة الغاشمة.

باريس في ٢١ فبراير ١٩٤٧

محمد عبد الله دراز

الباب الأول

حقائق تاريخية أولية

تمهيد

قبل أن نشرع في دراسة منهجية لكتاب الإسلام نذكّر بالظروف التي أُنزل فيها والمراحل التي مرّ بها حتى وصل إلى أيدينا.

وأيا كان الاعتقاد في مصدر القرآن الكريم فمن الثابت تاريخيا أنه يرجع إلى محمد بن عبد الله ﷺ سواء استقاه من أعماق نفسه، ومن معارف بيئته - كما يقول الكافرون - أو أنه تلقاه حرفيا بإملاء رسول سماوي وسيط بينه وبين الله - كما يؤكد القرآن ذلك ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣]، ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٧].

وبما أن علمنا المحدود لا يستطيع أن يصعد إلى هذا المصدر البعيد عن الطاقة البشرية، فإننا على أي حال تلقيناه من محمد ﷺ سواء أكان مؤلفه أو مبلغه الوحيد إلى البشرية جمعاء.

الفصل الأول

حياة الرسول ﷺ قبل البعثة

نظراً للارتباط الوثيق بين الرسول ورسالته، فسنبدأ بتقديم صورة مصغرة لشخصية محمد ﷺ منذ طفولته حتى الوقت الذي كُلف فيه ببعثته للبشر كافة.

ما هي إذن هذه الشخصية؟

ينتمي محمد ﷺ إلى أسرة عريقة بمكة من قبيلة قريش من فرع بني هاشم التي غلب ورعها وتقواها على قوتها السياسية. وينسبه الأثر إلى نسل إسماعيل بن إبراهيم بعدد من الأجيال لم يتأكد لنا من عددها وأسمائها سوى واحد وعشرين جيلا حتى عدنان. وولد الرسول ﷺ يوم الإثنين من الأسبوع الثاني من شهر ربيع الأول من عام الفيل أي من تاريخ غزو الحجاز (الفاشل) الذي قام به « أبرهه » أمير اليمن في ظل حكم الدولة البيزنطية بقوة من جيشه اشترك فيه أكبر أفيال مملكة الحبشة.

لقد ولد محمد ﷺ يتيماً، فقد مات أبوه عبد الله قبل مولده بسبعة شهور. وعهد به إلى مرضعة بدوية هي حليمة من قبيلة بني سعد حتى بلغ الرابعة، كما كان يقضي العرف عند أشراف مكة بإرسال أولادهم لينشئوا في جو الصحراء النقي. ثم تولت أمه تربيته بمعاونة مربية هي

أم أيمن، لكنه لم يستمتع بحنان الأمومة طويلاً ؤ إذ ماتت أمه وهو في السادسة من عمره، واستقبله جده عبد المطلب، وآثره بحنانه وعطفه، وتنبأ له بمستقبل عظيم. ولم يكد محمد ﷺ يبلغ الثامنة حتى فقد جده، فتولى رعايته عمه عبد مناف الملقب بأبي طالب الذي أولاه حباً أبوياً خالصاً رغم أنه لم يكن ميسور الحال لكثرة عياله. وقد لاحظ رخاء نسبياً في داره يوم أن دخله هذا الصبي فكان يحرص على أن يكون محمد ﷺ بجواره دائماً وبشعور متبادل كان الصبي لا يصبر على البعد عن عمه. ولهذا نرى محمداً ﷺ (وهو في الثانية عشر من عمره) يصحب عمه في رحلته لسوريا عام ٥٨٢م طلباً للتجارة.

وترجع إلى هذه الرحلة القصة المشهورة لأول اتصال لمحمد ﷺ بالأوساط الدينية في شخص الناسك المسيحي بحيرا في بُصرة (بسوريا) فيحكي لنا الأثر أن هذا العابد لاحظ بعض العلامات المنصوص عنها في الكتب المقدسة تصاحب القافلة فدعاها إلى طعامه، وشرع في فحص وجوه القوم ومضاهاة علاماتها بما لديه من وثائق. فلم يستدل على شئ وأخيراً عندما تحدث إلى محمد ﷺ الشاب الذي وصل متأخراً اقترب من أبي طالب وقال له:« هذا الشاب سيقوم بدور عظيم في العالم فأرجعه إلى بلاده على عجل واسهر عليه واحذر عليه من اليهود الذين قد يؤذونه لو علموا منه ما أعلم »[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام، مجلد ١، ص ١١٥.

ولا نعرف سوى تفاصيل قليلة عن حياته منذ ذلك التاريخ حتى تاريخ زواجه. وعموماً فقد قضى شبابه في حالة قريبة من الفقر. ويؤيد القرآن[١] ذلك والسنة توضحه، فبعد أن مات أبوه وعاش في كنف جده لم يرث من أمه سوى أَمة سوداء وقطيعاً من الغنم وخمسة جمال. والعمل الذي زاوله في تلك الحقبة كان في الغالب رعي الأغنام الذي يقول الرسول ﷺ عنه أنه عمل الأنبياء من قبله موسى وداود وغيرهما.

وكان يتميز من بين أترابه الفتيان بخُلقه الرفيع وبصفه خاصة بحيائه الشديد وبعده عن اللهو الرخيص وبعفته المطلقة. وكان يجذب اهتمام كل من تعامل معه فأكسبه ذلك ثقة كبيرة في قلوب الناس مما برر تسميته بـ « الأمين » .

ومثل هذه الخصال تنبئ عن صاحبها في المجتمع فنراه وهو في ريعان شبابه ﷺ يُدعى لمجالسة رؤساء القبائل الموقرين في حلف الفضول[٢].

وبقدر ما كان زواجه في سن الخامسة والعشرين فرصة لرفع مستواه المادي فقد كشف أيضا عن صفات حميدة أخرى. فقد كلفته خديجة الأرملة الثرية الشريفة النبيلة وهي في الحلقة الرابعة من عمرها بمهمة

---

(١) ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [سورة الضحى: ٨]

(٢) كلمة الفضول معناها: التوسط للمساعي الحميدة. وكان هذا الحلف المكي يستهدف مساندة الضعفاء ورد الظلم عن المظلومين وإقرار السلام بين القبائل والتصدي لمن يحاول العبث به.

تجارية إلى الشام فأنجزها بذكاء ونزاهة مما أكد عندها أحقيته باسم الأمين. ورغم الفارق المادي الشاسع بينهما فقد فاتحته في أمر الزواج الذي قبله رغم تباين السن؛ وظلت بعد ذلك زوجته الوحيدة طوال ربع قرن لم يفرق بينهما سوى الموت، وظل الوفاء لذكراها يثير غيرة زوجاته فيما بعد.

لقد كان زواجهما من أوفق الزيجات وأثمرها فقد أنجبت له ولدين هما القاسم وعبد الله اللذين توفيا في سن الطفولة[1] وأربعة بنات اعتنقن الإسلام هُنَّ زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. وستكون الأخيرة زوجة على بن أبي طالب (رابع الخلفاء الراشدين) وتزوجت الاثنتان السابقتان على التوالي عثمان بن عفان (ثالث الخلفاء الراشدين).

أما زينب فقد تزوجت قبل الإسلام بابن عمها أبي العاص الذي اعتنق الإسلام فيما بعد، وماتت قبل وفاة النبي بعامين عن أبنتها (أُمامة) التي تزوجت (علياً) بعد موت فاطمة.

وكان محمد أباً حنوناً وزوجاً وفياً أبدي عاطفة متدفقة نحو أولاده وأحفاده. إذ كان يسير عدة كيلومترات على أقدامه لمجرد أن يراهم ويضمهم إليه ويقبلهم عند المراضع. وكان يتركهم يعتلون ظهره أثناء الصلاة كما كان يقطع خطبته لكي يستقبلهم ويجلسهم إلى جواره على

(١) ولقد رزق الرسول فيما بعد بالمدينة بولد هو ابراهيم من مريم القبطية الذي مات قبل وفاة أبيه بشهور (أنظر محمود باشا الفلكي، الكتاب السابق ص ٧).

المنبر. ونقاشه مع رجلين من بني تميم عن العاطفة الأبوية[١] معلوم في السيرة. وبعد أن تحقق له الثراء ظل على بساطته وزهده في الأكل ولم يستفد من سعة رزقه إلا ليوسع دائرة السعادة لمن حوله. فوفاءً لدين عمه عليه واعترافاً بجميله نحوه عندما رعاه في طفولته أخذ على عاتقه تربية ابن عمه الأصغر على الذي زوجه ابنته فاطمة أصغر بناته.

وكان أهم الأحداث التي وقعت بين تاريخ زواجه وتاريخ بعثته وهو في الخامسة والثلاثين وقت ترميم الكعبة. فلأهمية هذا الصرح الذي كان بمثابة المعبد الوطني للجزيرة العربية كانت كل القبائل العربية تبدي له كل تقديس رغم اختلاف عقائدها. لهذا نراها جميعاً تحرص كل الحرص على أن تنال شرف المشاركة في أعمال إعادة بناء الكعبة. ولقد توصلت بفضل تقسيم العمل بينها على تحقيق مطالب الجميع حتى وجد المتنافسون أنفسهم أمام العمل الذي لا يتجزأ وهو إعادة وضع الحجر الأسود في مكانه. فلم يرض أحد التنازل عن حقه في رفع الحجر ولم يستطع أحد أن يمنع تفاقم النزاع. ومع ذلك وقبل الالتجاء إلى السلاح عُقد اجتماع أخير تقرر فيه الاحتكام في هذا الموضوع إلى أول شخص يدخل الرحاب المقدسة للكعبة من باب بني شيبة. ولقد شاءت الأقدار أن يكون هذا الشخص هو محمد

(١) البخاري كتاب الأدب باب ١٨- ورد ذكر مناقشتين في هذا الموضوع: الأولى مع الأقرع بن حابس التميمي عندما رأى الرسول يقبل حفيده الحسن فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد وما قبلت منهم أحداً فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يُرحم، والثانية: عندما جاء أعرابي إلى النبي فقال تقبلون الصبيان فما نقبلهم فقال النبي: أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة.

ﷺ. فلما رآه الناس يدخل صاحوا -الأمين ..الأمين- ولم يخب أملهم في انتظار الحل العادل فقد أسرع محمد ﷺ - في بديهته اليقظة ونزاهته المعهودة - بأن بسط رداءه على الأرض ووضع بيديه الحجر الأسود وسط الثياب ثم طلب إلى رؤساء القبائل أن يمسك كل منهم بطرف الثوب وأن يرفعوه معاً إلى المستوى المطلوب وعندما وصلوا بالحجر إلى المكان المخصص له أخذ محمد الحجر بنفسه ووضعه مكانه. فساد الرضا بين جموع الحاضرين واستتب السلام بين القبائل.

وفي هذه السِّن كان محمد ﷺ قد اكتمل جسمه وعقله وخلقه وظل هذا الكمال ملازماً له حتى نهاية حياته. لقد كانت قامته أكثر قليلاً من المتوسط وكان قوي البنية عريض الصدر والأكتاف كبير الرأس عريض الجبين الذي تعلوه السَّكينة؛ فمه واسع وأسنانه بيضاء منفصلة قليلاً ولحيته غزيرة وشعره أسود مجعد يسقط إلى ما تحت أذنيه؛ كان أسود العينين وبالقرنية شعيرات حمراء وبشرته بيضاء تميل إلى اللون الوردي؛ كانت مشيته خفيفة مهيبة كأنه ينحدر من جبل؛ ملبسه بسيط ونظيف ومرتب، زهده نادر ولكنه لا يرفض الطعام الطيب إذا ما سنحت لذلك فرصة تلقائية؛ صبور في احتمال الآلام والتعب من غير أن يقصدها؛ قليل الحديث ولكن هذا الإقلال لا ينقص من حلاوة حديثه ولا من إحساسه بالمرح البرئ. وعندما صار رئيساً وحيداً للدولة لم تغره خيرات الدنيا ومتعها؛ فقد أبعد عن أهله وعن نفسه عن اقتناع كل أنواع الترف مهما

كانت وعارضته زوجاته معارضة صريحة عندما رفض إجابة مطالبهن المادية راغبات في الحياة الدنيا وزينتها(١) أما القليل الباقي في حوزته بعد وفاته فلم يُورثَّ لأهله وإنما وزع على الفقراء. ولقد تفوق الرسول بصفة خاصة في الفضيلة الاجتماعية إذ وُهب ليناً ورقةً لم تغادراه حتى وهو في أوج سلطانه. فلا يعنف محدثه مهما كان؛ و لايعجل إنهاء حديثه؛ ولايكون البادئ بسحب يده من يد من يصافحه. ومع حزمه ونزاهته في إقامة العدل بين الناس كان متسامحاً فيما يتعلق بحقوقه الشخصية. يقول أنس بن مالك أحد خدمه إنه طوال عشر سنوات خدمه فيها لم يعاقبه مرة ولم يسأله عن سبب ما فعل أو لم يفعل. وإن كان قد نجح في أن يعيش في سلام مع سائر الناس حتى ذلك الوقت لأنه عرف كيف يستحوذ على حب وإعجاب كل من عاشره، فإنه لن يلبث أن يثير ضده عداوة ومعارضة من ظلوا يكنون له الحب. فقد اقترب الآن من الحلقة الرابعة من عمره وأصبح مقبلاً على حدث جليل سوف يعطي لسلوكه اتجاها جديداً ويعتبر بحق تغييراً حقيقياً لمجرى التاريخ.

وأول أعراض بعثته النبوية كما جاء في رواية عائشة أن كل ما كان يراه في منامه كان يتحقق بدقة وبوضوح مثل فلق الصبح في اليوم الثاني.

---

(١)﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

وبعد ذلك بدأ يميل إلى الخلوة والوحدة. فاختار مكاناً لخلوته في جبل حراء أو جبل النور في شمال مكة. وهناك بعيداً عن مجتمع مكة الوثني الفاسد وبعيداً عن المشاغل الدنيوية كان يحب أن يخلو إلى نفسه[١] في غار يطل على الكعبة وعلى الأفق المترامي خلفها على مدى البصر.

وفي إحدى الليالي ووسط السكون المطبق من يوم ١٧ من شهر رمضان كما يقول ابن سعد (فبراير ٦١٠ من التقويم الميلادي) دخل محمد ﷺ في أول اتصال له مع ما وراء الكون. فمر بأول تجربة له مع الوحي الحقيقي. لقد نقل إلينا بنفسه أطوار ما حدث على شكل حوار بينه وبين جبريل، بين التابع والمربي. قال جبريل: إقرأ، قال محمد مندهشاً: ما أنا بقارئ، فكرر جبريل قوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ بعد أن ضمه إليه ضمة شديدة، قال محمد: ماذا أقرأ! ولقد تكرر نفس الأمر مع ضمة أشد من الضمة الأولى، كما لو كان المقصود منها إثارة انتباهه والتمكين في نفسه لمعاني الجدية التي تتطلبها التبعة الثقيلة التي سيكلف بها. ولكن صاحبنا المتبتل يتساءل في هلع: (كيف أقرأ)، وهنا يقرأ عليه الملكُ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ١-٥].

وثبتت هذه الكلمات الكريمة في ذاكرته، وأخذ يرددها لنفسه بينما

---

(١) لا تحدد رواية البخاري مدة هذه الخلوة وإنما أوضحت أن محمداً في وحدته كان يتحنث الليالي ذات العدد وكلما نفذ طعامه يرجع إلى أهله يتزود ؛ أما ابن اسحاق فيذكر أن مدة الخلاء المتقطعة كانت شهراً.

اختفى الملك. وعندما خرج محمد من الغار عائداً إلى داره سمع صوتاً يناديه. فرفع رأسه إلى السماء وإذا بالملك ذاته يغطي الأفق ويقول: (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) ولم يستطع أن يحول نظره، أو يتقدم أو يتأخر، فلم يكن يحدق في أي نقطة في السماء إلا ويراه أمامه. واستمر ذلك لمدة من الزمن ثم لم يعد يرى شيئاً.

قد يكون الاضطراب الذي أصاب محمداً من هذه التجربة السمعية والبصرية الجديدة قد أوجد عنده بعض الشك حيناً في حقيقة صوت الملك أو بعض الخوف من أن يكون قد أصابته مسة شيطانية وهو الذي لم يمقت شيئاً كمقته للسحرة والكهنة فكان يخشى أن يكون قد أصبح واحداً منهم. وقد لا يبعد عن الحقيقة أن الآلام البدنية التي نتجت عن هذه المقابلة تشبه آلالم الموت وقد يكون قد تصور أنه مات من شدتها. وبهذا الاضطراب المعنوي والبدني عاد محمد فوراً إلى بيته تهزه حمى باردة وطلب من أهله أن يدثروه بغطاء ثقيل حتى يذهب عنه الخوف. وعندما أنهى إلى خديجة ما حدث وأبدى لها مخاوفه واضطرابه بذلت وسعها في تطييب خاطره في أطيب حديث وأجمل مواساة: « كلا والله ما يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضعيف وتعين على نوائب الدهر » .

ولما لم تستطع أن تعطي له تفسيراً موضوعياً وأكيداً عن طبيعة هذه الظاهرة لجأت إلى من هو مختص في الموضوع لاستشارته. وقررت أن

تذهب معه إلى ابن عمها -ورقة بن نوفل- وهو عجوز كفيف قد تنصر بعد أن أمضى حياته في المطالعات العبرية وفي علوم الكتب السماوية السابقة. فقال لهما: « هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى ﷺ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ » . قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا » .

ولكن حياة ورقة لم تدم طويلاً وإن كانت هذه الكلمات المطمئنة قد ألقت ضوء الأمل في هذه النفس القلقة لهذا الإنسان الشغوف بالعلم والباحث عن الوضوح واليقين، أي هذه العقلية الموضوعية، وسوف نرى أن هذا الأمل لم يكن قوياً ولم يدم طويلاً. إذ كان طبيعيا أن يتصور محمد تحقق هذا العلم الموعود، الذي أعلنه صوت الحق، في الأيام التالية. فكان يعود دائماً في طلب الدرس الثاني في ذات المكان الذي تلقى فيه الدرس الأول. وكان يجلس مجلسه الأول ويجوب الجبل ويدور بنظره في كل اتجاه والأيام تتلو الأيام والأسابيع تتوالى والشهور تتبع الشهور ومضى العام وبدأ العام الثاني.

وكما يقول الشعبي ثم الثالث أيضا وهو في انتظار مجئ الملك. وفي كل مرة يصل فيها إلى حافة اليأس كان يرى ويسمع «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » كانت هذه الكلمات تلقى في نفسه شيئاً من السكينة إلا أن الوحي الحقيقي كان يطول انتظاره فيغمره الحزن والضيق من جديد. فقال

بعض الناس: لم يكن ذلك إلا لوثة من الجنون. وافترض آخرون فيما بعد أن الأمر كان يتعلق فعلا بمنحة سماوية عظيمة، إلا أن ما أظهره محمد من ضعف الاحتمال جعله يبدو كما لو كان غير جدير بهذا النداء الرباني. فنزلت آيتان(١)(٢) لتردا عنه هذه المخاوف ولكنهما لم تمنحاه التعاليم المنتظرة.

ولقد شارف محمد ﷺ عامه الرابع والأربعين. وكان يسهر شطراً طويلاً من الليل انتظاراً لهذا القول «الثقيل المترقب »، بل لقد تعود منذ مقابلة الوحي الأولى أن ينعزل في جبل حراء في نفس الفترة أي شهر رمضان. وأخيراً عندما أتم عزلته وشرع في نزول الجبل من الجانب المطل على مكة سمع صوتاً يناديه فالتفت يمينه ويساره وخلفه فلم ير شيئاً، فرفع بصره إلى السماء فرأى الملك الذي رآه من قبل على جبل حراء ولكن مفاجأة ظهور الملك والضخامة العظيمة لهذا المخلوق السماوي أذهلته حتى لم تقو رجلاه على حمله. فارتعد من الخوف (وقد يكون أيضاً من برد شهر يناير) وأسرع عائدا إلى خديجة يطلب منها الرعاية السابقة. إلا أن زائره الكريم لحق به إلى البيت حاملاً إليه الحكم الذي يكلفه بمهمته الثانية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١-٢]. منذ ذلك الوقت لم يقتصر دور محمد على أن يتلقى تعاليم ربه فحسب وإنما عليه أيضاً أن يبلغها إلى

(١) ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم:٢]، ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[الضحى:٣]

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا * إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ١-٥].

الناس ، فدور الرسول ﷺ قد أضيف إلى دور النبوة.

لقد رأينا كيف أنه من خلال هذين التكليفين كان الوحي منقطعاً وبطيئاً بل وقليلاً، ولكن ما أن بدأ التكليف بالرسالة، حتى أصبح الوحي ينزل على الرسول لا أقول بصفة منتظمة وفي فترات متقاربة وإنما بنوع من الاتصال ومن غير أن ينقطع مثل الإنقطاع السابق.

فعام ٦١٢ الميلادي هو نقطة إنطلاق رسالة الإسلام، ويجئ تاريخ الهجرة(١) ليقسم فترة الرسالة إلى قسمين متساويين تقريباً منها عشر سنوات في مكة مسقط رأس الرسول، وعشر سنوات في المدينة حيث توفى في ١٢ أو ١٣ من ربيع الأول عام ١١ هجرية (٧ أو ٨ يونيو ٦٣٢ ميلادية) بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وستين عاماً قمرياً بالكامل أي أكثر قليلا من واحد وستين عاماً شمسياً.

---

(١) الهجرة معناها قطع العلاقات والابتعاد عن الاختيار، وإن كانت أسباب ذلك غير اختيارية. فمن المعلوم أن محمداً وهو يبلغ رسالته – اضطر إلى أن يرحل عن وطنه في اليوم السابق لمؤامرة كانت تهدف القضاء عليه واستقر به المقام بالمدينة، حيث وصل في بداية شهر ربيع الأول (يوم ٢ أو ٨ أو ١٢ لاختلاف المؤرخين) ولقد حدد الفلكي المصري السابق ذكره إعتماداً على وثائق عديدة – يوم الهجرة بيوم الأثنين ٨ من ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر عام ٦٢٢ بعد الميلاد إلا أنه يجب أن لا يغيب عن بالنا أن التقويم الإسلامي بدأ من السنة القمرية التي تمت فيها الهجرة وليس يوم هجرة الرسول أي أنه بدأ قبل ذلك بشهرين وعدة أيام أي في يوم أول محرم الموافق الموافق ١٥ أو ١٦ يوليو عام ٦٢٢ ميلادية ولما كانت السنة القمرية الكبيسة تساوي ٣٥٥ يوما فقط وأن مجموع ٣٣ سنة قمرية يعادل ٣٢ سنة شمسية تقريباً فيمكن تحويل التاريخ الهجري (هـ) إلى تاريخ ميلادي (م) أو العكس باستخدام إحدى المعادلتين التاليتين: م= هـ+ ٦٢٢ - هـ/ ٣٢ ، هـ= م - ٦٢٢ ٣٢ /٣٢ /٣٢.

ولاشك أن من الأمور الطريفة حقاً متابعة الرسول في نشاطه الدؤوب وفي رسالته الهادية طوال العشرين سنة والتي نتج عنها ثورة من أكبر الثورات الحضارية التي عرفتها البشرية. ولكن لما كان الهدف الرئيسي من هذا الكتاب هو دراسة تحليلية للبناء القرآني ذاته، ونظراً لأننا قد تناولنا بالدراسة حياة محمد ﷺ حتى بلغنا نقطة إلتقاء الرسول برسالته، نستطيع الآن أن نتناول بالبحث الكتاب الذي تركه لنا.

وسوف نتناول في الفصل التالي كيفية تكوين الكتاب الكريم وتنظيمه وحفظه وتناقله عبر التاريخ.

الفصل الثاني

كيف جمع نص التنزيل الحكيم

وإذا كان نص القرآن الكريم الذي بين أيدينا اليوم مطابقاً تماماً لما أملاه الرسول ﷺ لكتبة الوحي، فإن الشكل الخارجي قد طرأ عليه تغيير كبير. إذ لم يكن هناك ما يطلق عليه كتاباً أو مجلداً. فقد نزل القرآن أجزاء متفرقة تتباين أطوالها من سورة كاملة إلى آية واحدة وأحياناً جزء من الآية. وكان الرسول ﷺ يتلو كل جزء ينزل عليه ويعلمه للسامعين ليصل عن طريقهم إلى من لم يسمعه من فم الرسول ﷺ مباشرة. وكان الناس جميعاً ينتظرون الوحي يشغف ويتمنون أن يتلقوه فور نزوله.

غير أن النص المنزل لم يقتصر على كونه (قرآناً) أي مجموعة من الآيات تتلى وتقرأ وتحفظ في الصدور، وإنما كان أيضاً (كتاباً) مدونا بالمداد. فهاتان الصورتان تتضافران وتصحح كل منهما الأخرى. ولهذا كان الرسول ﷺ كلما جاءه الوحي وتلاه على الحاضرين أملاه من فوره على كتبة الوحي ليدونوه على أي شيء كان في متناول أيديهم مثل الورق أو الخشب أو قطع الجلد أو صفائح الحجارة أو كسر الأكتاف... الخ. ويذكر العلماء الثقات أن عدد كتّاب الوحي بلغ تسعة وعشرين كاتباً أشهرهم الخلفاء الخمسة الأوائل. ولكن معاوية وزيد بن ثابت كانا أكثر ارتباطاً بمهمة الكتابة التي

لم تأخذ الطابع الرسمي إلا في المدينة. إلا أن المسلمين بمكة لم يتوانوا في تسجيل الآيات في مخطوطات شخصية لاستعمالهم الخاص. ولقد لوحظ منذ وقت مبكر أن مجموعات الآيات لم تكن لتبقى منعزلة بعضها عن بعض، ولا أن تتوالى بعضها تلو الأخرى حسب نزول الوحي. وقد كانت مجموعات تتزايد بمعزل عن مجموعات أخرى. وتكون تدريجياً وحدات مستقلة بعد أن تنضم إليها آيات أخرى نزلت بعدها. وأن آيات كانت تضاف هنا والأخرى تتداخل مع غيرها هناك بحسب أمر الرسول ﷺ الصريح الذي كان يتلقاه بدوره من روح القدس. وحتى تتاح الفرصة لسور القرآن لكي يتم بناؤها تدريجيا كان ينبغي الانتظار إلى أن يكتمل الوحي كله لإخراج القرآن في شكل وحدة كاملة.

ولم يحل هذا بين المؤمنين وبين المعرفة الشفوية لموضع كل آية جديدة من كل سورة على وجه التحديد، في كل مرحلة من مراحل نزول الوحي. وكان في حياة الرسول ﷺ مئات من الصحابة يطلق عليهم (حفظة القرآن) تخصصوا في تلاوة القرآن وحفظه عن ظهر قلب، وفي معرفة كل سورة في هيئتها المؤقتة أو النهائية. وكان الرسول يذكر أنه في شهر رمضان من كل عام كان يقوم بمراجعة عامة وتلاوة الآيات التي نزل بها الوحي في حضور جبريل وأنه في العام الأخير راجع عليه جبريل القرآن مرتين مما جعل الرسول ﷺ يتنبأ بقرب أجله.

ولم يمض عام واحد بعد أن قبض الرسول ﷺ إلا وبدت الحاجة ملحة لجمع وثائق القرآن في مجموعة مدونة، سهلة الاستعمال حيث تتتابع آيات كل سورة، كما هو ثابت في حافظة المسلمين. ولقد تقدم عمر بن الخطاب بالفكرة إلى الخليفة الأول عقب معركة اليمامة التي قتل فيها مئات من المسلمين منهم «سبعون من حفظة القرآن».

وكان عمر يهدف ليس فقط إلى حفظ المدون من القرآن في مأمن من الأخطار، وإنما أيضا إلى إقرار الشكل النهائي لهذا الكتاب المقدس وتوثيقه عن طريق حفظته الباقين على قيد الحياة، واعتماده من الصحابة الحافظين. ولقد عهد أبو بكر بهذه المهمة إلى زيد بن ثابت وقال له: «إنك رجل ذكي لا نتهمك. وكنت تكتب الوحي في عهد الرسول ﷺ. فقم بجمع القرآن»[1].

وكان زيد قد حضر بنفسه آخر تلاوة للقرآن قام بها الرسول ﷺ. ووضعت قاعدة للعمل، تقضى بألا يؤخذ بأي مخطوط لا يشهد شخصان على أنه مكتوب ليس من الذاكرة، وإنما بإملاء الرسول ﷺ ذاته، وأنه جزء من التنزيل في صورته النهائية. وبعد جمع القرآن بكل هذه الاحتياطات، سلمه زيد إلى أبي بكر الذي احتفظ به طوال خلافته، وعهد

(١) بعد أن أَوْرَدَ لوبلوا هذه الرواية أردف قائلا:« من ذا الذي لم يتمن لو أن أحداً من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة » . القرآن والتوراة العبرية – ص ٤٧ مذكرة ٥.

به قبل موته إلى عمر، ثم قام عمر بتسليمه إلى ابنته حفصة أم المؤمنين في آخر لحظة من حياته. ويتميز أول مصحف رسمي (الذي يمكن أن نشبهه بملف يجمع صحفا مرتبة وغير مجلدة) بكماله المطلق وبمطابقته المطلقة للنص المنزل.

ويختلف عن النسخ الأخرى الكاملة أو الناقصة التي كانت عند الأفراد بأنه استبعد منه كل ما لم يتضمنه النص الأصلي طبقا للعرضة الأخيرة. كما كان يخلو من أسماء السور. ولكن رغم قيمة هذا المصحف العظيمة ورغم ما استحقه وناله من العناية التي بذلت في جمعه، وبقائه محفوظاً بعناية عند الخليفتين الأولين. فإنه لم تتح فرصة نشره إلا في خلافة عثمان بعد معارك أرمينية وأذربيجان.

فحين تجمعت جيوش المسلمين الوافدة من سوريا ومن العراق، لاحظوا بعض الاختلاف في القراءات. إذ كان السوريون يتبعون قراءة «أُبَيّ» والعراقيون يتبعون قراءة«ابن مسعود». فقال بعضهم لبعض «قراءتنا خير من قراءتكم » ففزع حذيفة بن اليمان إلى عثمان وطلب إليه أن يضع حداً لهذا اللجاج الذي قد يؤدي إلى مثل ما وقع فيه اليهود والنصارى من فرقة بشأن كتبهم. فشكل عثمان لجنة من أربعة نساخ من الصحابة منهم زيد بن ثابت نفسه – من الأنصار – وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام – من المهاجرين.

وكلفهم بنسخ مصحف حفصة بعدد من النسخ تعادل عدد الأمصار[١] الرئيسة في الدولة الإسلامية.

وبانتهاء هذا العمل بما يتفق تماماً مع النص الأصلي، أعيد مصحف حفصة إليها بينما جُلدت النسخ الأخرى ووُزعت على الأمصار، باعتبارها نماذج لا بديل لها وتبطل كل ما يخالفها من قريب أو بعيد.

ولقد ظن بعض الشيعة أن عثمان قد بدل في نص القرآن أو أنه على وجه التحديد أسقط شيئاً يتعلق بعلي بن أبي طالب. فلو صح ذلك لراجعه حملة القرآن وما أكثرهم في وقت نشر مصحف عثمان عند مضاهاته على ما يحفظونه في صدورهم. إلا أنه حتى ابن مسعود نفسه قد أقر بصحة مصحف عثمان برغم عدم رضائه عن السياسة لعدة أسباب. ونظراً لغيرة المسلمين الأوائل - وهم بطبيعة الحال أكثر تحمساً لكلام الله من خلفائهم - يستحيل علينا أن نعلل قبول الكافة لمصحف عثمان دون منازعة أو معارضة، بأنه راجع إلى انقياد غير متبصر من جانبهم. ولقد قرر «نولدكه» أن ذلك يعد أقوى دليل على أن النص القرآني « على أحسن صورة من الكمال والمطابقة ».

ومهما يكن من أمر، فإن هذا المصحف هو الوحيد المتداول في العالم

(١) يتفق أغلب الرواة على أنها كانت خمس نسخ خطية (فيما عدا نسخة عثمان الشخصية) أرسلت إلى مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق. ويذكر حاتم السجستاني نسختين لليمن والبحرين (كتاب المصاحف لابن أبي داود ص ٧٤).

الإسلامي - بما فيه فرقة الشيعة - منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان. ونذكر هنا رأي الشيعة الإمامية (أهم فرق الشيعة) كما ورد بكتاب أبي جعفر الأم « إن اعتقادنا في جملة القرآن الذي أوحى به الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ هو كل ما تحتويه دفتا المصحف المتداول بين الناس لا أكثر. وعدد السور المتعارف عليه بين المسلمين هو ١١٤ سورة. أما عندنا فسورتا الضحى والشرح تكونان سورة واحدة، وكذلك سورتا الفيل وقريش، وأيضا سورتا الأنفال والتوبة. أما من ينسب إلينا الاعتقاد في أن القرآن أكثر من هذا فهو كاذب » . (وهذا الفرق الشكلي لا يوجد إلا نظرياً؛ لأن نسخهم لا تختلف عن نسخ أهل السنة في شيء)(١).

وبناء على ذلك أكد «لوبلوا»: «أن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر».

وكان «و. موير» قد أعلن ذلك قبله إذ قال : « إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف.

(١) أما «سورة النورين » الموضوعة والتي نشرها «جارسين دي تاسي » تحت عنوان: «سورة مجهولة من القرآن» فقد أثبت العالم الجليل - ميرزا اسكندر كاظم - أن السورة المزعومة لايوجد لها أثر في مصحف الشيعة، ولم يرد ذكرها فى مؤلفاتهم الخاصة بمجادلاتهم التقليدية. بل إن عنوانها «النورين» والذي يشير إلى محمد ﷺ وعليّ لم يظهر لأول مرة عند الشيعة إلا في القرن السابع الهجري طبقاً لما جاء عند الطوسي. وهي لاتعدو أن تكون تراكماً ركيكاً من العبارات والكلمات المسروقة من القرآن، وهذا يتعارض تعارضاً شديداً مع أناقة الأسلوب القرآني وتناسقه.

ولقد حُفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر. بل نستطيع القول إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة... فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا، والذي يرجع إلى الخليفة المنكوب عثمان الذي مات مقتولا».

وهذا الحكم الذي يمتاز بنزاهة تاريخية لا مثيل لها يحتاج إلى تصحيح فى نقطتين؛ لأنه أرجع النص القرآني إلى عثمان في حين أن عثمان لم يقم إلا بنشر المخطوط المجموع في عهد أبي بكر والذي لم يكن إلا التدوين الكامل حسب ترتيب العرضة الأخيرة للرسول ﷺ بإملاء الرسول نفسه، ويتضمن الحكم أيضاً زيادة بأن أكد بأن النسخ المتداولة لا تتضمن أي اختلاف في القراءة. ونعلم عكس ذلك. فإن الحروف المتحركة الطويلة تكتب دائماً في جسم كل كلمة بينما الحروف المتحركة القصيرة والمتوسطة لا تكتب أبداً. كما أن مجموعة كبيرة من الحروف العربية لا تختلف عن بعضها إلا ببعض نقط التشكيل مثل الياء والنون والباء والتاء.. ولم تكن هذه النقط تستخدم في عهد النبي ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة من بعده. وفي الغالب كان النطق لا يتضح إلا بإرشاد شفوي. غير أن السنة توضح لنا أن الرسول ﷺ لم يتبع نطقاً واحداً عند تعليمه القرآن

للمسلمين. فلم يكن نادراً أن يعطي للكلمة الواحدة (أو أصلها) أكثر من قراءة، كلها صحيحة ولها مدلولها مثل «ملك» قد تُقرأ «مالك»أو «ملك» وكذلك «فتبينوا» يمكن قراءتها «فتثبتوا» طبقاً للقراءات المختلفة الواردة في السنة. فقد قال الرسول ﷺ: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منها». ويروي البخاري أن عمر ثار على هشام بن حكيم بن حزام لقراءته سورة الفرقان، ويذكر الطبري أن أُبيّ بن كعب صُدم من قراءة سورة النحل. وعندما احتكموا إلى الرسول ﷺ أقر القراءتين. وفى رأينا أن نشر القرآن بعناية عثمان كان لهدفين:

أولهما : أن إضفاء صفة الشرعية على القراءات المختلفة – التي كانت تدخل في إطار النص المدون ولها أصل نبوي مجمع عليه – وحمايتها، فيه منع لوقوع أي شجار بين المسلمين بشأنها.

وثانيهما : استبعاد ما لا يتطابق تطابقاً مطلقاً مع النص الأصلي، وقاية للمسلمين من الوقوع في انشقاق خطير فيما بينهم، وحماية للنص ذاته من أي تحريف نتيجة إدخال بعض العبارات المختلف عليها نوعاً ما، أو أي شروح يكون الأفراد قد أضافوها لمصاحفهم بحسن نية.

وليس معنى ذلك أن الطبعة العثمانية– فضلاً عن المصحف العثماني الأصلي – تتضمن جميع القراءات التي قد يكون الرسول ﷺ قد علمها للناس باسم السبعة أحرف؛ لأنها إذا كانت قد اشتملت بالفعل على

القراءات التي اتفق على أن النص الأصلي كان يتضمنها في صورته الأخيرة، فقد استبعدت هذه الطبعة كل قراءة واردة عن طريق الآحاد، ولا يتوافر فيها الضمان المطلوب. ولقد وفق هذا المبدأ منذ البداية بين آراء آلاف الصحابة الحاضرين وارتضوه عن طيب خاطر. ونضيف أن هذا الاستبعاد عن النص المدون لم يكن الغرض منه ولا من نتائجه إلغاء القراءات الشفوية. بل إنه ترك الباب مفتوحاً لكل من كان يؤكد إنه سمع الرسول ﷺ يقرأ بقراءة معينة لكي يقرأ بقراءته الخاصة بحرية تامة وتحت كامل مسئوليته الأدبية ومن غير أن يلزم جماعة المسلمين بما يؤكد سماعه. وهذا ما أكده عثمان حين قال: أما القرآن فلم أمنعكم إلا لأني خشيت عليكم الفرقة. ويمكنكم أن تقرءوا بالحرف الذي يتيسر لكم.. ولم يتوقف المتفقهون في علوم الدين في كل زمان عن الاهتمام بدراسة هذه القراءات الفردية. ولازالت حتى اليوم يكسوها طابع التقديس وتستخدم في مدارس أهل السنة – لا على أنها نص قرآني – ولكن كأحاديث آحاد. والسبب الذي أدى إلى استبعادها عن النص الصحيح وقت جمع القرآن أنها لم تتوفر فيها الشروط الجوهرية لإثبات صحة النص وهو الضمان بأن النص على شكله المدون تتوفر فيه المراجعة الكافية والتصديق الوافي على صحته من ذات الرسول ﷺ أو ممن يمثله. فضلاً عن أن هذه القراءات غير الرسمية لا تتعلق بكل سور القرآن ولا حتى بسورة واحدة بأكملها.

وكل ما عنى به الصحابة إذن لإثبات صحة النص القرآني هو

المطابقة الحرفية لكل جزء منه طبقاً لما نزل ودُوِّن بإملاء الرسول ﷺ، ثم تُلِيَ فيما بعد أمامه وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته. وهذه الموضوعية المطلقة هي الباقية والخالدة على مدى الدهر تشهد لهم لا عليهم.

وإذا كان إعدام[١] المخطوطات الفردية يبدو فيه شيء من القسوة في الوقت الذي لم يحدث بالفعل أي تحريف على الإطلاق، فإنه يدل على أن عثمان كان بعيد النظر وعميقاً في إدراك حقيقة الأمور.

ويرجع فضل تمتع المسلمين اليوم بوحدة كتابهم واستقراره إلى هذا العمل المجيد من جانب عثمان. وما أضيف إلى المصحف العثماني من علامات خارجية، ووجود بعض الحروف الزائدة أو الكلمات المدغمة أو الكتابات القديمة التي اقتصرت على كتابة المصاحف وحدها في جميع نسخ القرآن اليوم المطبوع منها والمخطوط، يعد شهادة بليغة على الأمانة التي انتقل بها البناء القرآني من جيل إلى جيل حتى وصل إلينا بهذا الكمال المنقطع النظير، وأن النص باق كما هو على الدوام يتحدى الزمن.

(١) الواقع أنه لم يقم بهذا الإجراء من تلقاء نفسه ومن غير استشارة الناس، فقد قرر علي بن أبي طالب في إحدى خطبه أن هذا الإجراء لم يتخذ إلا باتفاق جميع الصحابة الحاضرين، وأنه لو أن عثمان لم يقم به لقام به عليّ نفسه (ابن أبي داود ص ١٢-٢٢).

الفصل الثالث

كيف تم تبليغ المبدأ القرآني إلى العالم

كل الدنيا تعرف بصفة عامة ما هو المبدأ القرآني الذي نسميه الإسلام. وغالباً ما تقتصر هذه المعرفة على السمات الخارجية. فيقال: إن الإسلام هو ذلك الإصلاح الديني والاجتماعي والأخلاقي الذي بمجرد أن ظهر على ساحل البحر الأحمر في بداية القرن السابع الميلادي، سار بخطوات منتصرة نحو الشمال والجنوب ونحو الشرق والغرب حتى إنه انتشر في نصف العالم المعروف في ذلك الحين في فتره قصيرة نسبياً.

هذا الحدث التاريخي الجليل الذي لا مثيل له على مر الزمان، قد أثار اهتمام الإنسانية جمعاء، كما أثار فضول مؤرخي الأخلاق والأديان، فحاولوا أن يجدوا له شبيها في القديم دون جدوى. وقارنوه أحياناً بفتوحات الإسكندر المقدوني إذ كانت واسعة وسريعة ولكنها لم تأت بأي تغيير سواء في أفكار الشعوب أو عاداتها، وما لبثت هذه الفتوحات أن زال أثرها عند أول بواكير الإسلام. فلم تتجاوز أعمال الإسكندر الأكبر مجال التعمير الحضاري بإقامة مدن عظيمة في الشرق حيث ساد الرخاء الاقتصادي وقتاً طويلاً، أما مجموعة الشعوب والفلاحون فقد احتفظوا بطباعهم من حيث اللغة والأخلاق والنظم السياسية

والاقتصادية. وحتى في المدن لم تتأصل الأفكار والعادات اليونانية إلا في أقلية من التجار الرأسماليين. ثم أن المستعمرين الإغريق أنفسهم قد خضعوا فيما بعد لفاتحين آخرين. وإن هذه المدن دمرت تدريجياً في ظل حكم الأمبراطورية الرومانية. أما في المجال الفكري فإن الإسكندر لم ينقل معه الفكر اليوناني وإنما تبنى بدون قيد ولا شرط الأفكار التي كانت سائدة في البلاد المغلوبة في ذلك الوقت واعتنق عقائدها. ولم يكن حلفاؤه خيراً منه إذ لم يغيروا شيئاً على الإطلاق.

وخلال الحكم اليوناني والروماني وجدت الأفكار الفلسفية والدينية - وهي مذاهب شرقية بحتة - الفرصة مواتية لكي تنتقل عن طريق اليونانيين إلى أوروبا باسم الأفلاطونية الجديدة أو المسيحية. ولهذا يحق لنا أن نقول إن الشرق في الحقيقة هو الذي غلب فاتحيه.

ثم جاء الإسلام فتغير كل شيء بين يوم وليلة. ولم يقتصر على الواجهة السياسية والاقتصادية فقط، وإنما تغلغل في أعماق هذه الشعوب النفسية: فاللغات والأفكار والقانون والآمال والعادات وتصور العالم وفكرة الله. كل ذلك قد طرأ عليه تغيير جذري سريع.

ولم يقتصر هذا التأثير على النفوس التي آمنت به، بل إنه كان ينزع دائما إلى الانتشار وكسب الأتباع الجدد كلما أتيحت للإسلام الفرصة لكي يظهر في بساطته ونقائه.

ولكن هذه الحقيقة تتعارض مع رأي ذائع الانتشار وتلوكه الألسنة في الغرب من أن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف. بينما التأثير الذي يمارسه الإسلام على النفوس في الوقت الحاضر هو خير دليل على أن له قوة ذاتية وتوافقاً فريداً مع الطبيعة البشرية وحقيقة الأشياء.

ولقد حدث في السنوات العشر الأولى من الدعوة الإسلامية أن قامت القوى المعادية تصب أحقادها وتستخدم كل عنفها لاضطهاد الدعوة الناشئة وتعذيب أتباعها، في حين أن العرض البسيط لمبادئ الإسلام كان يجذب كل يوم مسلمين جدد رغم كل العقبات. وتشهد هذه السنوات بمدى البطولة والتسامح اللذين كان الرسول ﷺ والمسلمون يتحملون بهما سخرية قومهم وسبهم، فضلا عن العزلة والمقاطعة التي فرضت عليهم مع استخدام أقسى أنواع التعذيب والتنكيل، مما أجبر مئات المسلمين ومنهم أشراف قريش على أن يبحثوا عن ملجأ أمين بالقرب من ملك الحبشة.

ولكن المثل الأخاذ في هذه الحقبة الذي يدل على الأثر العجيب لهذا النداء السلمي ضربه لنا سكان يثرب. فمن قبل أن يروا وجه الرسول الكريم ﷺ، ومن قبل أن يسمعوا صوته الندي، وبمجرد أن سمعوا التنزيل القرآني على لسان حجيجهم، أقبل عرب المدينة على الإسلام، وتلقوا القرآن بشغف حتى لم تبق أسرة واحدة إلا وكان من بين أفرادها

عدد من المؤمنين. وأكثر من ذلك أن العداوات والخصومات التي ظلت مشتعلة بينهم ما يقرب من ربع قرن، قد انطفأت فجأة بنفحة ربانية، وأصبحوا بنعمة الله إخوانا. وكانت العبادات الإسلامية التي لم تمارس بمكة بسبب الاضطهاد - تقام جماعةً على مسمع وعلى مرأى من الناس جميعاً في المدينة. وفى هذا الوسط الكريم استُقبل جميع المهاجرين بحفاوة، بعد أن تركوا ديارهم وأموالهم، وبعد أن أوذوا بمكة أشد الإيذاء.

وحتى ذلك الوقت كان كل شيء يمر بسلام على الأقل من جانب المسلمين، ولم يكن هناك ما ينبئ عن إمكان الالتجاء إلى القوة. بعد أن اطمأن الرسول ﷺ على مصير أتباعه ووصولهم إلى بر الأمان، حتى اعتقد أن المطلوب منه البقاء بمكة والاستمرار في دعوته، إلا أنه تلقى الأمر الإلهي بالهجرة في اللحظة التي بدأ فيها تنفيذ مؤامرة على حياته. وبعد أن نجا من هذا الخطر بمعجزة، ألم يكن ينبغي عليه أن يفكر في الانتقام من أعدائه؟ كلا. وإذا تتبعنا نشاطه بعد الهجرة نجد أنه كان يوجهه لأعمال سلمية نبيلة وبناءة: منها تشييد مسجده، وتنظيم المجتمع داخلياً وسلمياً، وتنفيذ فريضة الصيام، ووضع نظام الآذان. وكل شيء كان يبدو وكأن المسلمين قد أداروا ظهورهم عن مكة نهائيا، حتى في قبلة الصلاة، إلى أن حان منتصف العام الثاني للهجرة، حيث بدأوا يعترضون قوافل قريش تمهيداً لمنازلتهم..

من أين جاء هذا التغيير المفاجئ؟

لا يمكن تفسير هذا التحول إلى نفسية الرسول ﷺ فقد اتفق المستشرقون على أن الإجراءات الحربية ليست من طبعه. بل إن تسامحه وعفوه عن المشركين كثيراً ما جلب عليه لوماً من القرآن.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [الأنفال:٦٧]

وقوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[التوبة:٨٠]

وقوله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة:١١٣].

كما أن الأثر نقل إلينا كثيرا من عفوه تجاه جرائم ارتكبت ضد شخصه أو ضد ذويه[١].

ولا يعزى كذلك إلى نفسية الشعب العربي الذى يتميز بالروح الحربية كطبع أصيل فيه. إذ أن العلماء لا يؤيدون مثل هذا الافتراض. فقد أثبتوا

(١) منها عفوه عن مبعوث قريش الذي جاء بعد بدر لاغتياله، وعن اليهودية التى دست له السم. والأخرى التي دفعت ابنته زينب، فأجهضتها. وعفوه عن الذين جاءوا بالإفك، وعن أهل مكة وقت الفتح (انظر «محمد والقرآن» سان هيلير ص ١٢٥-١٣٠).

أن الدماء تثير الفزع في نفوس العرب ولا سيما أعراب الصحراء. أما الحرب عندما تفرض عليهم فإنهم يقبلونها بدلاً من تحمل الذل والعار.

فلا بد أن شيئاً ما قد حدث فى تلك الفترة أدى إلى الموقف الجديد. والواقع أن القرآن يجسد أمامنا مشهداً مثيراً للغاية، إذ ينقل إلى أسماعنا صوت استغاثة من «الرجال والنساء والولدان» الذين أسلموا وهم بمكة ولا سند لهم يعينهم على الهجرة أو على دفع الظلم عنهم، ويتعذبون بإيمانهم ويطلبون العون الإلهي لنجدتهم. فلقد كان الغرس القديم - الدرس والقدوة - مثمراً وهو بعيد عن أية دعاية جديدة. وكلما خفق الإيمان تحركت العداوة والقسوة لإخماده بدون رحمة.. ماذا يكون الحال إذن..؟ أيحق للمهاجرين والأنصار وهم في مأمنهم أن لا يعيروا لمصير إخوانهم بمكة أي اهتمام؟ هل يجوز منطقياً أن تحرم «الحقيقة» و«الفضيلة» من حقهما في تلقي العون، وأن يترك الاستبداد يشهر سلاحه ضدهما؟

ومع ذلك فإن هذا العون لم يقدمه المسلمون في المدينة بسهولة على الأقل في صورته الحربية. ويكفي أن نرجع إلى القرآن لكي نرى مدى التردد والتراجع من جانبهم .. ولكن فريضة التضحية العظمى كان قد حان وقتها، وأراد الله أن يفصل فى الصراع القائم بين الحق والباطل. فبقدر ما ظلت الاضطهادات ذات طابع فردي وخاص، التزم المسلمون مدة إقامتهم بمكة، بالامتناع عن أي رد فعل عنيف، وتحملوا جراحهم ببسالة. أما وقد اصطبغت كراهية المشركين بصبغة العمومية وتحولت

إلى حرب ضارية، فقد أذن للمسلمين - بعد عشر سنوات من الصبر الجميل - أن يهبوا للدفاع الجماعي[١] عن كيانهم وللذود عن إخوانهم الذين لا سند لهم. ولا شك أن الحكم الموضوعي يقر بأنه لا لوم على مثل هذا الموقف الدفاعي البحت المتفاني في السمو. تلك هي الظروف التي انطلقت فيها شرارة الحرب المسلحة الأولى.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٥-٧٧]

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧] .

وقوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء:٧٨] .

---

(١) كان صدور الأمر العام بالقتال في ظروف غير مواتية، بحيث لايمكننا أن نوافق الدكتور سنكلير بأن القانون القرآني كان يتعدل حسب انتصارات محمد (ص ٢٧٩). كما قلب معنى الآية [البقرة: ٢١٧) التي تدين العدوان في الأشهر الحرم (ص ٢٧٦) واعتبر وسائل قمع الإرهابيين (المائدة: ٣٣) صورة جديدة للحرب تعد مرحلة ثالثة في هذا التطور (ص ٢٧٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ ﴾ [آل عمران :١٣] .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٧–٨] .

وقوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩ – ٤٠] .

ولكن السؤال يتركز أساسا فيما إذا كان التشريع القرآني قد تطور فيما بعد، فوسّع حق الدفاع عن النفس بحيث شمل كل عدوان.

يبدو أن معلومات العالم الغربي غير وافية في هذه النقطة، إذ يسود الاعتقاد أنه يحق للشعوب الإسلامية – بل وحتى طبقا لكتابهم المقدس – أن يستخدموا السلاح سواء لفرض دينهم على الناس أو للقضاء على كل من لا يعتنقه، ويطلقون على ذلك «الحرب المقدسة » وهي عبارة يجعلونها تتوافق مع كلمة «جهاد » في حين أن هذا التعبير الذي يقصد به

«بذل الجهد » ليست له أية علاقة بالناحية العسكرية، لأنه ورد في السور المكية إما لبذل الجهد فى الوعظ والدعوة والجدل بالحسنى ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان :٥٢] ، وإما لبذل الجهد الشخصى ذي الطابع الأخلاقي البحت ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: آخر آية]. أما ما يعبر عن الحرب الحقيقية فهي كلمة «قتال ».

والرجوع إلى النص القرآني يوضح لنا الموضوع والهدف والحدود التى يقصدها التشريع القرآني من وراء القتال. فيقول تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠] .

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ... فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٩٢-١٩٣]،

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا - سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ ... فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء:٩٠-٩١].

وفى موضع آخر نجد نفس التفرقة قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ

يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ...﴾ [الممتحنة:٨-٩]، وفى سورة التوبة نرى العناية التي أولاها القرآن في استثناء المشركين الذين لم ينقضوا عهودهم فيصرح ويقول تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٤].

أما الموضوع الذي يحرض القرآن المؤمنين من أجله فيتضح أكثر من الآية: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، وترتب على ذلك بطبيعة الحال أن يأمر الله المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦]، ولكن هذا القتال يتوقف بمجرد حفظهم للعهد فيقول تعالى: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٧].

فلا تجد في أي مكان إذنا بالبدء بالقتال. وإنما الأمر هنا محدد بموقف الخصم العدواني والأكثر من ذلك أنه حتى بالنسبة للمشركين الذين لا يرتبطون مع المسلمين بعهود ومواثيق ويطلبون حمايتهم، نجد القرآن يطالب الرسول ﷺ بأن يبلغهم مقصدهم في أمان فيقول تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾

[التوبة:٦]. فكل مسئوليات الحرب إذن تقع على عاتق البادئ بها. وعندما يقول القرآن: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة:١٩٠]، إنما يقصد بذلك الذين يقاتلون قتالاً فعلياً ويحملون السلاح. وقد أوضحت السنة هذا الشرط بعناية فائقة وأبعدت عنه أى لبس: فالنساء والأولاد والشيوخ والعميان والعجزة والمجانين والمزارعون في حقولهم والمتعبدون في صوامعهم[1]، لا يتعرضون للأعمال الحربية أي لأي عمل يؤدي إلى التدمير بوجه العام مثل الفيضان والحريق... وعند تطبيق الحكم القرآني بالعفو عن الذين يوقفون القتال، أوصى النبي ﷺ بتحريم ملاحقة العدو الهارب من ساحة القتال.

إذن لقد وضح الهدف من هذا التشريع.. ألا وهو «إبعاد الخطر». فالإسلام يدين روح التدمير وروح السيطرة في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣]، ولا يريد فرض «أيديولوجية عالمية»، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩]، فالخلاف سيظل قائما بين الناس، ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: ١١٨]

والإيمان سيقتصر على قلة منهم، ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ

(١) إذا كان يقصد بالحرب محاربة الدين، ألم يكن من الأولى أن يكون هدفها هم رجال الدين أنفسهم.

بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]. والإسلام إنما يقف فى وجه من يعترض طريق الحرية ويعرض الناس للفتنة لا العكس.

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ ﴾ [البقرة:٢١٧].

هل معنى ذلك أن «هداية» الناس أو «غوايتهم» لا تهم المسلمين؟ هذا هو التفسير الذى يحاولون تقديمه أحيانا عن سماحة المسلمين إزاء الأديان الأخرى. إنها طريقة أخرى لإنكار الطابع الحقيقي للقرآن.. إنهم ينسبون إليه إما التشدد والمبالغة في الرغبة في استمالة الناس نحو مبادئه، وإما فتور هذه الرغبة واللامبالاة. غير أن موقف القرآن الحقيقي لا يتمثل في أي من هذين الطرفين. إنه يقرر وجوب الدعوة إلى الحق وإلى الفضيلة، ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، بهمة، ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾[الفرقان:٥٢]، وبأسلوب يتسم بالحكمة وبالإقناع وباللين، وللغير أن يؤمن بما يسمع أو لا يؤمن، وعليه بعد ذلك ألا يضيق بحرية المؤمنين فى إقامة شعائرهم. على أن يتحمل كل فرد مسئولياته كاملة.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

فالمبدأ القرآني هو مبدأ التسامح. وقد تكون هذه التسمية أقل من الحقيقة في بعض النواحي، إذ نلاحظ:

أولا: أن الشعوب التي لا تقبل العقيدة الإسلامية، وإنما تخضع سلميا لتشريعها المدني فإنهم يكونون على قدم المساواة مع المسلمين أنفسهم «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».

ثانيا: أما الذين لا يقبلون العقيدة الإسلامية ولا التشريع الإسلامي فإن القرآن يطالبهم بموقف مسالم من جانبهم لكي يوفر لهم معاملة أساسها العدل والبر فيقول تعالى: ﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة: ٨].

وأما إذا صوب الكفر ضرباته إلى العقيدة ليخمد نورها، فهل من المعقول أن يقف الدين مكتوف الأيدي أمام ما يفنيه فناء تاماً؟ لقد عاش المسلمون التجربتين في وقت مبكر وفطنوا إلى أنه لا يوجد ما يعادل تبادل الأفكار في حرية وسلام. حتى قيل: إن عدد الذين اعتنقوا الإسلام – أثناء صلح الحديبية – حيث كانت حدود المعسكرين مفتوحة. بلغ ما

يزيد على عددهم في السنوات السابقة مجتمعة. وعلى أي حال، على كل من يدعي أنه اكتشف غرضاً آخر لنظام القتال في التشريع الإسلامي أن يذكر لنا الرقم التقريبي للأتباع الذين دخلوا الإسلام بفضل هذه الإجراءات القاسية.

ويمكنا أن نفترض وقوع أخطاء في فترات الاضطرابات، كما قد يشتبه في بعض الانحرافات في الأجيال التالية. ولكن لنسمع اعتراف أحد النقاد المعاصرين ممن لا يعلنون تأييدهم للنظام الإسلامي «رغم العقبات الرسمية التى كانت تحول دون اعتناق الإسلام فقد كان الناس يدخلون في هذا الدين أفواجاً ... ولم يحدث قط أن عربياً – وهو في أوج حماسه لدينه الجديد – فكر في أن يطفئ في الدم المسفوك عقيدة دينية أخرى.. لم يحدث قط أن زاول الخليفة أي اضطهاد تجاه النصارى أو تجاه الزنادقة »[1].

وعلى أى حال، فإن البؤس والآلام التي يمكن أن ننعيها في المعارك الإسلامية كانت طفيفة والحروب كانت سريعة، مما يحملنا على الاعتقاد بأن الأبواب كانت مواربة أمام الفاتحين المسلمين، وما كان عليهم إلا دفعها لتفتح على مصراعيها.. ولنتذكر أن حركة الإصلاح البروتستانتي التي لم تتناول بالتعديل إلا عدة مبادئ فقط من المسيحية – قد كلفت أوروبا خلال

(١) جوتييه « أخلاق وعادات المسلمين» ، ص ٢٠٧-٢٠٨، ٢١٧.

قرن ونصف القرن من الآلام والضحايا ما يربو على ذلك بكثير.

إن كل بنيان مزيف إذا عاش برهة من الزمان بفضل القوة التي تسانده، لا بد وأن ينهار حين تختفي من حوله العناصر الغريبة عليه والتي ساعدت على بقائه. فماذا نرى اليوم بعد أربعة عشر قرناً، وبعد توقف التوسعات الإسلامية؟ فإن البناء الاجتماعي الذي تعرض طوال التاريخ المديد لعناصر التدمير الداخلية والخارجية فضلاً عن البناء الديني والأخلاقي لا يزال قائماً وثابتاً في صلابة بحيث قيل بحق «إنه لم يحدث منذ بداية الهجرة أن مسلما قد تحول عن دينه إلى دين آخر»[١].

وعلى أي حال نستطيع أن نؤكد أن المسلمين اليوم أقل استعداداً لأن يتخلوا عن عقيدتهم من أتباع أية ديانة أخرى.

أليس مما يناقض القوانين النفسية أن ينسب هذا التمسك إلى نوع من الاستسلام الوراثي يرجع أصله إلى إكراه وقع على آباء المسلمين الأولين وأنهم يحتفظون بذكراه منقوشة في أعماق أذهانهم؟.. لا جدال في أنه يتحتم علينا أن نسلم بوجود بعض الصفات الذاتية التي مكنت للإسلام من هذا الانتشار ومن هذا الثبات رغم البعد التاريخي لمولده.

(١) «خطاب افتتاحي» ، مترجم إلى اللغة الفرنسية ومؤلفه «بورتر» فى مقدمة «القرآن» تأليف «دي راير» .

الباب الثانى

القرآن من خلال مظاهره الثلاثة:

الدينى والأخلاقى والأدبى

تمهيد

إذا كان القرآن قد أثر دائماً على عقول جد مختلفة، فلا بد أن تكون له جاذبية خاصة.

بتوافقه الكامل مع طريقة الناس في التفكير والشعور.

وباستجابته لما تتطلع إليه النفوس في شئون العقيدة والسلوك.

وبوضعه الحلول الناجعة للمشكلات الكبرى التي تقلق بالهم.

وبمعنى آخر لا بد أنه ينطوي على ما يشبع حاجة الناس إلى الحق والخير والجمال، بما يجمع من صفات العمل الديني والأخلاقي والأدبي في آن واحد.

الفصل الأول

الحق أو العنصر الدينى

إن أهم ملامح القوة الجارفة التي تتميز بها الدعوة الإسلامية تكمن – في رأينا – في الطريقة التي قدمت بها الحقيقة الدينية بهدف وضع نهاية للخلافات المثارة حولها.

فبعد أن أجابت الديانات على السؤالين العقدين الرئيسين اللذين اختلف وتنازع بصددهما الفكر الفلسفى: « ما مصدر الكون؟.. وما مصيره؟ » ، أسست هذه الديانات على الإجابة نظاماً كاملاً للعقيدة والعبادة اختلف باختلاف الأزمنة والمجتمعات. حتى أن الصورة التي وصلت إلينا عنه قد تغلغل فيها التباين والإختلاف في أشكاله وحتى في مبادئه الجوهرية.

ولقد ركز القرآن على فكرة أن رسل الله جميعاً يعزز بعضهم بعضا، ويتضامنون في تبليغ حقيقة واحدة، وأن الأنبياء أمة واحدة تحت لواء الله الواحد. وأن هذه الوحدة كانت تجمع سائر الناس فيما مضى، وإنما الأجيال اللاحقة هي التي بذرت الخلاف والفرقة.

والقرآن وهو يعرض دعوة الإسلام بطريقته المنطقية لا يعرضها على أنها دعوة محمدية جديدة ومستقلة تنافس الموسوية والمسيحية وتنازعهما

الحقيقة الدينية، وإنما يقرر القرآن أن المسلم هو الذي يؤمن في آن واحد بموسى وعيسى وجميع رسل الله، ويوقرهم بلا تمييز بينهم، ويؤمن كذلك بكتبهم ومبادئهم جميعا. أي أن المسلم يستسلم لله ولإرادته التي أعلنت متتابعة على ألسنة الأنبياء والمرسلين. وبهذا يسمو الناس فوق الانشقاق والتنافس، ويجدون في هذا الإجماع التوازن الذي لا غنى عنه لراحة الضمائر، لأنه طالما كان عقيدتي مطابقة للعقيدة التي يعلنها هؤلاء الرسل فقد انتفت الأسباب التي تبرر صَدِّي لهذه العقيدة...

القرآن إذن يدعو إلى العودة إلى الوحدة الدينية الأصلية التي يستجيب لها ويعتز بها ذوو النفوس السامية، وتتفتح لها قلوبهم المتلهفة. ولا شك أن هذه خطوة أولى ضرورية ثم تأتي بعد ذلك أهمية النظام والمنهج في الإسلام.

ونرى أن نقطة الانطلاق والنواة التي يدور حولها نظام الإقناع القرآنى تتركز في هذه الفكرة الرئيسة: وهي أن صانعاً يتصف بالكمال المطلق، والقوة المطلقة، والخير المطلق، خلق كل شيء في هذا الوجود، وأخضعه لإرادته خضوعا مطلقاً. وسر نجاح هذه الفكرة أنها تنسجم تماماً مع الوحدة الدينية التي يستهدف الإسلام إعادتها من جديد إلى واقع الحياة، حيث إن الفرقة لا تنشأ إلا في التعدد. فضلاً عن أن سمو هذه الفكرة فوق كل الاعتبارات الضيقة في الديانات المختلفة، تذكر الناس بالحقيقة الخالدة التي عرفوها أو التي يسهل عليهم معرفتها.

غير أن هذا التوحيد الأولى أو هذه الديانة النظرية -كما يسميها القرآن - كانت محجوبة ومغمورة تحت ركام من معتقدات وعبادات كانت تؤدي إلى عدد لا يحصى من الآلهة عند العرب.. كما أن أهل الكتاب نجحوا هم أيضا في الجمع بين توحيد الله الخالق وبين عدد من الآلهة الأخرى المعبودة. مما جعل في نظر العرب القول بأن الآلهة إله واحد قولاً عجيباً وكاذباً لدرجة أنهم زعموا أنهم لم يسمعوا به في مجتمعهم، ولا في الديانات السماوية السابقة. ولقد استخرج القرآن هذه الفكرة المغمورة وأعاد إليها صفاءها ونقاءها من كل شائبة. وهو بهذا لم يخترعها ولم يكتشفها، وإنما اقتصرت طريقته على حذف الشوائب لا على إضافة الجديد. وهكذا نرى - كما ألمحنا - أن قوه الفكرة الدينية تتركز في طابعها المتأصل، إنها تدفعنا إلى الإيمان بها بنفس القوة التي تغوص بها جذورها في أعماق معتقدات آبائنا الأولين الموغلة في القدم. ولهذا نرى القرآن - فضلاً عن استخدامه للتدليل المنطقي - يؤسس دعوته إلى التوحيد على تاريخ الأنبياء في كل الأزمنة السابقة، فيثبت بوضوح أن العقل والنقل يشاركان القرآن في إثبات عقيدة التوحيد، ورفض الوثنية والإشراك بالله على اختلاف صورهما.

ولكن كيف يمكن أن نفسر أن قضية خطيرة كهذه تستند إلى المنطق ورسوخ الأصل وتتجدد على الدوام بتعاليم الرسل الإيجابية - يمكن أن تختفي بهذه السهولة من الأذهان لتحتل مكانها أفكار مناقضة لها؟

السبب هو أن الإنسان بطبيعته يشعر أنه مدفوع إلى الإعجاب بالقوة الخلاقة أينما وجدها. ومن الإعجاب إلى العبادة، المرحلة متصلة وليس فيها إلا اختلاف في الدرجة، فالقوى الطبيعية كالشمس والشجر والنبع، عجائب تأخذ بألباب المتأملين، فما بالك بالخوارق التي تتم على يد ساحر أو صانع للمعجزات؟ فبإرشاد من الحواس الخارجية، يميل الإدراك بسهولة إلى أن ينسب أصل أية ظاهرة إلى مصدرها المباشر أي إلى الشيء الذي انطلقت منه كأثر لسبب حقيقي فعال ومستقل.

ولا يرتفع الإدراك من تأثير الظاهرة إلى مصدرها، ومن الملموس إلى المعقول، إلا بجهد فكري إرادى ولكن من النادر أن يبذل هذا الجهد. بينما من أهم أهداف القرآن تزكية هذا الجهد ودعمه بقوة كبيرة. فهو يذكرنا دائماً باستحالة خروج أي مخلوق من العدم من غير قوة الخالق، وباستحالة أن يخلق الشيء نفسه، أو أن يخلق أي شيء على الإطلاق في السماوات أو الأرض، ولا حتى أية حشرة على فرض تضافر كل القوى والجهود من أجل هذا الغرض، بل إذا استولت ذبابة على شيء يملكه أقوى إنسان في الدنيا فلن يستطيع أن يستعيده منها، فالجميع – ما عدا الله – لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض لا بالمشاركة ولا بالتبعية.

ولا أحد سوى الله يستطيع أن يغير نظام الطبيعة ولا الإبقاء عليه. والقوانين الأزلية التي لا نستطيع بتدخلنا أن نعدل منها شيئا، فإن ثباتها

بالنسبة للخالق - شأن كل قوانين السببية - متوقف على كلمة واحدة من إرادة الله سبحانه.

فلو شاء لجعل ماء المطر مِلحاً أُجاجاً. ولأسقط السماء فوق الأرض، ولأذهب الجنس البشري كله، ولجاء إلى الأرض بمخلوقات أخرى مكانه، فلله القوة جميعاً. إذ أن الأسباب القريبة والبعيدة، ومقاليد الأمور كلها بيد هذا الخالق العظيم وإليه مصيرها ومنتهاها.

بسماع هذا الحديث الكريم قد نميل إلى الاعتقاد في أن هناك قدراً محتوماً لا يجدي معه أي تدخل بشري، وإنما هي سلبية كاملة مفروضة على العالم.. حيث تختفي تماماً أية رابطة سببية بين الأشياء.

هذا الاعتقاد - فضلاً عن مجافاته للعقل ومناقضته للعلم - يتعارض مع مجموعتين من الآيات القرآنية فالأولى تدعو إلى بذل جهد أخلاقي دائم، والثانية تفسر الظواهر الطبيعية والتاريخية بعضها ببعض. والحل السوي هو الذي يحدد لكل حقيقة من الحقائق المسلم بها مداها ومرماها. فلا نمنح الإنسان والعالم قدرة ذاتية مستقلة تمام الاستقلال، ولا نصف الإنسان بالعجز المطلق. وهذا هو الوسط المعقول الذى يدعونا القرآن إلى الوقوف عنده. وهناك سوء فهم لرفض الرسول أن يكون بمثابة صانع للمعجزات، كما قد يكون هناك تلميح من هذه النقطة على أن الرسول ﷺ لم يقدم المعجزات أو البراهين الكافية لإثبات ربانية دعوته. والحقيقة أنه

في كل الظروف غير العادية التي تصاحب ظهور الرسل والأنبياء لتبليغ رسالتهم وتأمين نجاحها - لا يرى القرآن في ذلك كله عملاً بشرياً. إذ بقدرة الله تتم هذه المعجزة أو تلك، على أيدي هؤلاء الرسل أو على لسانهم.. ففي رسالة الإسلام في أول الأمر كانت تلاوة بعض الآيات القرآنية تحول الكفار المعاندين من الموت الوجداني إلى الحياة الروحية.

فليس محمد ﷺ هو الذي فتح قلوبهم، ولا هو الذي جعل المسلمين إخوة متحابين في الله، ولا هو الذي حقق نصر الإيمان على الكفر والشرك.

إنما هذه الأعمال تتم بإذن الله وإرادته. وكذلك المعجزات التى تمت على أيدى الرسل والأنبياء ومنهم محمد ﷺ.. فلا فضل فيها لفرط ذكاء الرسول ولا لسعة علمه، إنما الفضل أولاً وأخيراً لتدخل كريم ورحيم من جانب الله تعالى، المصدر الحقيقي لكل خلق ولكل علم ولكل خير.

وهكذا بفكرة كمال الله المطلق وصفاته المطلقة، أسس القرآن الشطر الأول من الحقيقة الدينية العامة. وتتلخص في أنه لا شيء في هذا الوجود يستحق العبادة والخضوع سوى الله الواحد القهار.

وبنفس الفكرة أسس القرآن الشطر الثاني من الحقيقة الدينية العامة: وهي الإيمان بالحياة الأخروية، حيث نقدم لله أعمالنا ونتلقى منه الجزاء الذي نستحق. وهنا نميز بين نقطتين: خلود الروح وبعث الجسد. ولم تقابل الدعوة الإسلامية معارضة تذكر بشأن النقطة الأولى، سوى خرافة

«الهامة » التي كانت سائدة عند العرب على أنها ظل الروح التي كانت تحوم ليلاً فوق قبر القتيل قائلة «اسقوني ». فإذا اقتُص من القاتل امتنعت عن الظهور. ولقد نفت السنة هذا الاعتقاد الجاهلى «لا هامة » وحكمت ببطلانه. وأما النقطة الثانية فقد ركز عليها المشركون معارضتهم وسخريتهم.

وقدم القرآن حجته الفاصلة من كتاب الطبيعة المفتوح... فطالب العقول أن تتدارس الأطوار التي يمر بها الإنسان في دورة الحياة منذ أن كان علقة إلى أن أصبح خلقاً جديداً في أكمل صورة عند ميلاده. هل يصعب على الذي بدأ الخلق كله أول مرة على غير مثال سابق أن يعيده مرة أخرى..؟ ويوجه القرآن الأنظار إلى الأحداث الموسمية: الأرض وهي جافة وجرداء تتحول إلى أرض خصبة.. ويؤسس عقيدة البعث ليس فقط على قرار رباني ألزم الله تعالى به نفسه ﴿ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا ﴾ [النحل:٣٨]، وإنما على أحد مستلزمات العدل الإلهي والحكمة السامية ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [النحل:٣٩]، ﴿ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ ﴾ [الجاثية:٢٢]، وإلا لكانت حياة الإنسان بلا غاية وبلا جدوى.

وهكذا تأسست الديانة الموحدة التي يدعو إليها القرآن. وإذا كانت الفكرة الدينية قد بقيت في جوهرها كما كانت دائماً، فلا شك أنها حققت تقدماً حقيقياً بالطريقة التي قدمها بها القرآن، ليس فقط لأنه

ساق البراهين والأدلة القادرة على إقناع أصعب العقول وعلى تحريك أقسى القلوب، وليس فقط لأنه قدم نظراته الواسعة والثاقبة عن الكون السماوي والأرضي واستخلص مواعظ ودروساً من كل مظهر من مظاهر الخلق الداخلية والظاهرية، وإنما بدت مادة الدين ذاتها المتعلقة باختصاصات الله تعالى ومآل الروح فضلاً عن معنى الألوهية الذى أصبح يمتاز بصفاء ونقاء وقدسية خاصة تبعد به عن أي تجسيم فظ وله قوة جارفة أخّاذة تحلق بالإنسان إلى عالم الروح السامي - بدا كل هذا وكأنه قد اكتسب روحاً جديدة لم تكن معهودة من قبل.

الفصل الثاني
الخير أو العنصر الأخلاقي في القرآن

ولكن النفس الإنسانية بجانب حاجتها إلى المعرفة والاعتقاد، تحتاج في إلحاح إلى القاعدة العملية القادرة على توجيه نشاط الإنسان سواء في تصرفاته مع نفسه أو في علاقاته مع غيره أو مع خالقه. ولقد قدم القرآن هذا النظام بأوفى وأدق طريقة ممكنة، وخط في هذه المجالات خطاً واضحاً يسلكه الإنسان في أمان واطمئنان. وبلغت أهمية الجانب العملي في القرآن، أن يتكرر ذكره كثيراً وبصراحة كشرط لا غنى عنه للفلاح في الدنيا والسعادة الخالدة في الآخرة. وسوف نوضح بعض الجوانب التى أثرت بها الدعوة القرآنية على الناس بفضل مادتها ومحتواها النفيس، وبفضل أسلوبها في عرض الحقائق.

لقد غرس الله داخل كل منا بصيرة أخلاقية غريزية، تجعلنا نقدر ونحب الفضيلة في ذاتها وفي غيرنا -حتى وإن عجزنا عن الارتفاع إلى مستواها. كما تجعلنا ننفر من مشهد أي سلوك هابط.. إننا نكره في أنفسنا عيوبنا الذاتية، ونلتمس لأنفسنا المعاذير لتبرئة أنفسنا منها؛ لأننا لا نقبل أن نوصم بأية رذيلة.

فعلى هذا الشعور العام القادر على التمييز بين العدل والظلم وبين الخير والشر، يستند القرآن في أغلب الأحيان ليؤسس نظامه الأخلاقي،

ويعتمد عليه كذلك في تعريف فكرته العملية فالرسول: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] (بمعناها الحقيقي والمجازي) ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ويكفي أن نذكر أن استناد القرآن على الضمير الأخلاقي – في عمومه – في التمييز بين الخير والشر قد ذكر في أكثر من خمسة وأربعين موضعاً منه(١) .

ونظراً لأن هذه الحاسة الفطرية ليست دائماً بنفس القوة والفاعلية عند كل الناس لكي تلزمهم بالخضوع لقاعدة السلوك، فقد اقتضى الأمر وضع منهج كامل في التربية يستند إلى الذكاء والعقل بجانب الحاسة الخلقية حتى إذا غابت هذه الحاسة تبقى فكرة الواجب العام. وأفضل طريقة لإيقاظ هذه الفكرة وجعلها تسمو بمشاعرنا، هي أن نستعين بتأييد ذوي الاختصاص لها من الحكماء والأنبياء في كل زمان. فليس بمحض الصدفة أن محمداً ﷺ يدعو إلى ما سبق أن دعا إليه الرسل السابقون ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦]، ويقول القرآن للرسول بعد أن عدد من سبقه من الرسل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠]، والواقع أننا لا نجد مبدأ أخلاقياً ينقله لنا القرآن

---

(١) انظر على سبيل المثال كتابنا «دستور الأخلاق في القرآن » الفصل الثالث - الفقرة الثالثة.

على أنه كان ضمن تعاليم هذا الرسول أو ذاك الحكيم، إلا وأورده القرآن في موضع آخر كواجب تلتزم به جماعة المسلمين.

وسنوضح فيما يلي القانون الأخلاقي كما جاء به موسى وجاء به عيسى عليهما السلام، كما ورد ذكره بالتوراة وبالإنجيل، وسنجده محفوظاً بعناية فائقة في آيات القرآن ولكن - لا على شكل كتلة واحدة - كما ورد بالوصايا العشر وبميقات الجبل - وإنما كآيات متفرقة في عدد من السور المكية والمدنية. وفي أغلب الأحيان على شكل آيات نزلت في مناسبة معينة بذاتها.

وفيما يلي الوصايا العشر:

القرآن الكريم	التوراة (سفر الخروج - الفصل ٢٠)
﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]	١- لا يكن لك آلهة أخرى أمامى.
﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠]	٢- لا تضع لنفسك آلهة مسبوكة.
﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللهَّ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُّ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة:٨٩)	٣- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً.
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣)	٤- أكرم أباك وأمك.
﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩)	٥- لا تقتل.

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠-٣١]	٦- لاتزن.
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] ﴿ وَلا يَسْرِقْنَ...﴾ [الممتحنة: ١٢)	٧- لا تسرق.
﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]	٨- لا تشهد على قريبك شهادة الزور.
﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء:٣٢)	٩- لا تشبه بيتقريبك..ولا شيء مما لقريبك.

هذه هي أسس القانون الأخلاقي الذي يقول عنه عيسى عليه السلام: « فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلّم الناس هكذا، يدعى أصغر في ملكوت السماوات. وأما من عمل وعلّم، فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السماوات ».

ولكن محاولة قصر دعوة موسى على هذه الواجبات الأولية بعد إقلالاً من شأنها، لأننا إذا واصلنا بحثنا سنقابل في أماكن متفرقة منها (الخروج ٢٢ -٢٣، اللاويون ١٩ -٢٥، التثنية ٦) أحكاما أخرى تتعلق بعمل القلب وعمل الجوارح، وتمهد بذلك لأحكام الإنجيل:

القرآن الكريم	التوراة
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النور:١٩] ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢]	لا تقبل خبزا كاذبا. (خروج ٢٣ : ١)
﴿وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]	-لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر. (خروج ٢٣ : ٢)
﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ... إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء:١٣٥]	- لاتحارب مع المسكين فى دعواه.
﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]	- ساعد غيرك. (الخروج ٢٣:٥)
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]	- كالوطني منكم يكون لكم الغريب. النازل عندكم (لاويين: ١٩:٣٤)
﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ. لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥]	- افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك (تثنية ١٥:١١)
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]	-لا تضطهد الغريب وتضايقه (خروج ٢٢:٢١)
﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء اللَّاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]	- لاتسئ إلى أرملة ما ولا يتيم. (خروج ٢٢:٢٢).
﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]	- لاترتكبوا جورا في القضاء (لاويين ١٩ : ١٥)
﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا. يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧ - ١٠٨]	-ابتعد عن كلام الكذب. (خروج ٢٣ : ٧).

القرآن الكريم	التوراة
﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]	- لا تنتقم (لاويين ١٩: ١٨).
﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ -٣]	- لاترتكبوا.. لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل (لاويين ١٩: ٣٥).
﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]	- لا تحقد على أبناء شعبك (لاويين ١٩: ١٨).
﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]	تكونون قديسين (لاوبين ١٩: ١)
﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]	-تحب قريبك كنفسك (لاويين ١٩: ١٨).
﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]	- فتحب الرب إلهك من كل قلبك (تثنية ٩: ٥)

وهكذا نجد القرآن يضطلع بواجبه المبدئي وهو حفظ وتبليغ مضمون الكتب السماوية السابقة ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]. إلا أنه وفاء لطريقته في العرض يفضل تقديم كل درس في مناسبته. فلنتتبع الوعظ الإنجيلي إذن وننظر كيف أن كتاب الإسلام يعززه:

القرآن الكريم (ضمن آيات كثيرة آخرى)	الإنجيـــــل
﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[البقرة: ٢١٢] ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤]	– طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات (متى ٣:٥)
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة:١٥٥]	– طوبى للحزانى لأنهم يتعزون. (متى ٥:٤)
﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]	–طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. (متى ٥:٥)
﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١]. ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ... فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٤]	– طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون (متى ٥ : ٦)
﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩)، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]	– طوبى للأنقياء القلب (متى ٥ : ٨).
﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]	– طوبى لصانعي السلام (متى ٩:٥)

القرآن الكريم (ضمن آيات كثيرة آخرى)	الإنجيـــل
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ﴾ [البقرة:٢١٤). ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥)	– طوبى للمطرودين من أجل البر. (متى ٥:١٠)
﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧).	– طوبى للرحماء لأنهم يرحمون. (متى ٥ : ٧)

ولقد قال عيسى الحق كل الحق عندما أكد أنه لم يأت ليلغي وينسخ وإنما ليتم ويكمل.

أى أنه كان يوالي من بعدهم مهمة التطهير الأخلاقي التي بدأها المرسلون من قبله والتي كانت تتيح مجالا للتقدم والرقي.

القرآن الكريم	الإنجيـل
﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران:١٣٤)، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧)	– ليس فحسب (لا تقتل) وإنما لا تغضب من أخيك وتقول له (رقا) أو (يا أحمق). (متى ٥:٢١ –٢٢)

القرآن الكريم	الإنجيـل
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠)، ﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١)، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧)	- فإن قدمت قربانك إلى المذبح. وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك. فأترك هناك قربانك وأذهب أولا اصطلح مع أخيك (متى ٥: ٢٢ -٢٤).
﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ...وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣٠ -٣١)	- لقد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. (متى٥: ٢٧ – ٢٩).
﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤)	- قد سمعتم... لا تحنث. وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة (متى ٥: ٣٣ -٣٤).
﴿هَاأَنتُمْ أُولاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩)	- سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم (متى ٥: ٤٣ – ٤٤)
﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢)، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤)	- أحسنوا إلى مبغضيكم (متى ٥: ٤٤).
﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨)	- وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. (متى ٥: ٤٤)
﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣)، ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٨)	- إن سلمتم على إخوانكم فقط فأي فضل تصنعون. (متى٥: ٤٧)

القرآن الكريم	الإنجيل
﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ... وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧)، ﴿يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٧)	– أعط الذي يطلب منكم، ولا تول ظهرك لمن يريد أن يقترض منك. (متى ٥: ٤٢)
﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾ [الماعون:٦)	– احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس. (متى ٦: ١).
﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوءٍ﴾ [النساء:١٤٩) ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور:٢٢)	– إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوي. (متى ٦: ١٤).
﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩-٢٠)	– لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض. (متى ١٩:٦)
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠)	– بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء. (متى ٦ – ٢٠)
﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [الزمر: ٢٩)	– لا يقدر أحد أن يخدم سيدين. (متى ٦ – ٢٤)
﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠)	– لا تهتموا لحياتكم... انظروا إلى طيور السماء... وأبوكم السماوي يقوتها. (متى ٦: ٢٥-٢٦)
﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١)	– لا تدينوا... ولماذا تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك. وأما الخشية التي في عينك فلا تفطن لها (متى ٧: ١-٣)

القرآن الكريم	الإنجيل
﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى:٩)	- لا تعط القدس للكلاب (متى ٧: ٦)
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦)، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:٦٠)	- اسألوا تعطوا (متى ٧: ٧)
﴿وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧)، ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٩).	- فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم (متى ٧: ١٢)
﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١)	- ادخلوا من الباب الضيق (متى ٧: ١٣)
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٤- ٢٠٦)	- احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. (متى ١٧: ١٥)

***

لم نورد في العرض السابق موضوعين من العهد الجديد هما الطلاق والقصاص اللذين يبدوان وكأنهما يتعارضان مع شريعة موسى.

ففي الطلاق نجد «حرية بلا قيد» منحتها التوراة للزوج في أن يطلق زوجته إذا رأى فيها ما يثير «الخجل»، أو عندما يشعر نحوها «بالكراهية»، بينما الإنجيل كأنه يعارض الطلاق إلا في حالة الخيانة. أما في القصاص، فمقابل الإصرار على المطالبة بدم القاتل والرد على كل سيئة بمثلها في التوراة، علم عيسى واجب عدم مقاومة الشرير والعفو عنه.

فإذا نظرنا إلى حرفية هذه المبادئ يتبين لنا أن المسيحية كأنها ألغت قوانين سابقة، وإذا أمعنا النظر أكثر، سنرى وجهين أو درجتين من قانون خالد واحد، أحدهما العدل والثاني المحبة. فالعدل يلزم من يرغب في استخدام حقه ألا يتعدى حدودا إنسانية معينة. وأما من يرغب في التنازل عن حقه بدافع من الكرم والأريحية فلا غبار عليه.

ولهذا نرى أن كلا من منهج العهد القديم ومنهج العهد الجديد، إما أنهما متكاملان أو أنهما متبادلان.. أو أنه لا مفر من الاعتراف بأنه لا ينبغي أن يحكم كل منهج منهما مستقلاً عن الآخر إلا مجموعة محدودة من البشر، أو خلال مرحلة معينة من التاريخ، والقاعدة الأخلاقية الصحيحة إذن هي التي يضمها الكتابان المقدسان معاً بحيث احتوى كل منهما جزء منها، وترك الجزء الآخر مستترا إلى حد ما. ولقد تولى القرآن الكريم إعلان هذه القاعدة الكاملة واعتنى كل العناية بتوضيح عنصريها وإبراز قيمة كل عنصر في ذاته. فيقول: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا

عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ . وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٦ :١٢٧] هذا ما يتعلق بالقصاص والعفو.

أما فيما يختص بالطلاق فينبغي أن نتصفح القرآن الكريم لكي يتبين لنا الحواجز التي يجب اجتيازها قبل التفكير في إيقاعه، ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[النساء:١٩]،﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء:٣٥]، ﴿ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ [النساء:١٢٨]والمحاولات التي يجب بذلها للتوفيق، ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [البقرة ٢٢٨–٢٣٠].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ

نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۞ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:١ -٢] ، ومن يرجع عن قراره يجلب له عمله المغفرة، ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٦] ، باعتبار الطلاق « أبغض الحلال إلى الله » . فالطلاق ليس عملا مباحا بغير حدود أو يُؤدَى بغير اكتراث.

وهكذا يوضح القرآن أعمال الرسل ويؤيد شرائعهم بالجمع والتوفيق بينها. ونعتقد أن في هذا التوحيد الذي يقبل في إطار قانون واحد درجات متفاوتة من أعمال الخير – عاملا على جانب كبير من الأهمية، استطاعت بمقتضاه الدعوة الإسلامية أن تنتشر في قطاع شاسع من البشرية، وأن تضم في رحابه أفكارا واتجاهات وطبائع جد مختلفة، لا يجدي معها تشدد تجريدي غير متسامح، ولا تساهل بغير حدود. وبتوضيحنا لمنهج القرآن التوفيقي هذا نكون قد أبرزنا في نفس الوقت مادة القرآن في الدعوة والتشريع.

ولكن القرآن لا يقف عند هذا الحد، إذ أن له رسالة أخرى ألا وهي إتمام وإنهاء الصرح الإلهي الذي بناه الرسل والأنبياء على مر العصور. يقول الرسول ﷺ « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » و « مثلي ومثل

الأنبياء كرجل بنى بيتا » ويقول القرآن : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

فما هو الجديد والتقدمي في تعاليم القرآن الأخلاقية؟..

١- فى مجال الفضيلة الشخصية:

نجد قاعدة جديدة ومبدأ جديدا. فالقاعدة الجديدة هي تحريم الخمر والقضاء على مصادرها، بمنع تناول أي مشروب مسكر.

وأما المبدأ الجديد فهو «النية » باعتبارها لب العمل الأخلاقي. فقد كان موسى يغري قومه بأرض الميعاد والنصر على الأعداء والبركة والرخاء في كل شئون الدنيا، وجاء المسيح ليفتح عهداً جديداً ويقرر أن النعيم والسعادة الموعودة ليست في هذه الدنيا، وإنما في ملكوت السماء. وأخيراً إذا بالقرآن الكريم يجمع بمنهجية البناء هذين الوعدين ويوفق بينهما، باعتبار أن الهدف ليس في ملكوت السماء ولا في ملك الدنيا، وإنما هو أعلى من هذا كله، إنه في الخير المطلق، أي في ابتغاء وجه الله تعالى الذي يجب استحضاره في القلب عند أداء العمل الإنساني بطاعة أوامره:

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] و﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۞ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢٠].

٢- الفضيلة فى العلاقات بين الأفراد.

بأحكام التوراة وأحكام الإنجيل استقامت شجرة الفضيلة وبزغت فروعها وأوراقها. أما بأحكام القرآن فستزهر هذه الشجرة وتؤتي ثمارها، فقد أوجد فصلاً رائعاً فيما يمكن تسميته بالحضارة الأخلاقية: أنه تقنين حقيقي في الأدب والذوق الاجتماعي والتحشم في المظهر[1].

٤،٣ - الفضائل الجماعية والفضائل العامة.

في القانون الأخلاقي في الديانة الموسوية يوجد الحاجز العالي بين الإسرائيلي وغير الإسرائيلي، فأي خير يسديه الإسرائيلي إذا لم يكن مقتصرا على شعبه، فإنه ينبغي ألا يتعدى وطنه ولا يشمل الغريب المقيم معه. كالقرض بربا (تثنية ٢٢: ٢٠) مطالبة الأجنبي بالحق (تثنية ١٥: ٣) عدم استعباد أخيه (لاويين ٢٥: ٣٩) عدم التسلط عليه (لاويين ٢٥: ٤٣ -٤٥) إلى جانب الالتحام الاجتماعي والشعور بالمسئولية الجماعية.(تثنية ٦: ٧، ١٣: ٥ ولاويين ٢٠: ٢٢).

أما القانون الأخلاقي المسيحي فله الفضل في إسقاط هذا الحاجز

---

(١) التحية (النساء:٨٦)، دخول البيت (النور:٢٧-٢٨)، الاستئذان (النور٥٨-٥٩)، الأكل عند الأقارب (النور:٦١-٦٢)، خفض الصوت(الحجرات ٢-٥)، التناجي (المجادلة ٨-١١)، الظن (الحجرات ١٢)، غض البصر (النور ٣١)، وضع الثياب (النور ٦٠)، طريقة الحديث (الأحزاب ٣٢-٣٣)، دخول بيوت النبي (الأحزاب ٥٣)، التحشم (الأحزاب ٥٩).

«لأنه إذا أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم،... وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون » [متى ٥: ٤٦ -٤٧] غير أن الفضيلة الاجتماعية المسيحية كما تقدمها الأناجيل تتعلق بالعلاقات بين الأفراد أكثر من دلالتها على الروح الجماعية بصفة أساسية. ولكن المحبة المسيحية بامتدادها خارج الحدود الإقليمية وبرغبتها في احتواء الإنسانية كلها، قد أحسنت صنعاً بإبطال الطابع العنصري واستبداله بأخوة عالمية.

ولكن القرآن الكريم هو الذي أبرم هذا الجمع بين الفضيلة العامة والفضيلة الجماعية، إذ يقرر أنه خارج الأُخوة في الله توجد الأُخوة في آدم، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١٠-١١]وأن تسود المحبة والإحسان مع اختلاف المشاعر الدينية، ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]

وإقامة العدل مع الأعداء، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة:٢]، وتحريم الربا مع الجميع، وأن التقّى يكون كذلك داخل جماعته وخارجها،﴿وَمِنْ أَهْلِ

ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:٧٥ -٧٦] .

والاهتمام بفك أسرى المسلمين، ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥] .

والعبيد بوجه عام، ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٠] .

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة :١٧٧]، ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد:١٣].

وهكذا تتطور فكرة الفضيلة العامة التي أعلنها الإنجيل، وتتحدد

أكثر فأكثر عندما تتسع لتشمل مجالات الحياة المختلفة. ولكن هل معنى ذلك أن الجماعة الإسلامية تتراخى في روابطها الداخلية لتضيع في محيط البشرية الواسع؟ على العكس إذ هناك مبدآن يؤكدان دورها كجماعة متميزة ومتماسكة.

الأول: يدعو المؤمنين بأن يكونوا جماعة واحدة لا تنقسم – بدون فرقة أو انشقاق – تلتف حول مثل أعلى وحول رئيسها، ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ٣٠١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] .

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦]

والثانى: هو التزام جميع المسلمين بألا يتركوا المنكر يسود في مجتمعهم: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٢٥]، وضرورة أن يتواصوا بالحق والفضيلة، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣]، ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، والتعاون على البر والتقوى، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

والتضامن هو مقياس جماعة المسلمين الأولى التي سميت بخير أمة أخرجت للناس، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومع ذلك بدا لبعض المستشرقين أن يصوروا المسلم على أنه ذو نزعة «فردية لا تقاوم» لم يعرف معنى «رباط التضامن» في يوم من الأيام، حتى إنهم يرون الأعمال الجماعية مثل صلاة الجماعة، ووقفة عرفات، وصلاة العيد، أعمالاً فردية تؤدى في وقت واحد دون أن يكون لها طابع الاحتفالات الموجهة أو المنظمة. وهذا القول لا أساس له من الصحة بدليل ما سبق توضيحه... وأما في الصلاة فنرى المؤمنين مصطفين، كل منهم يدعو للجميع ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٥،٦] » ولجميع عباد الله الصالحين. فالصلاة والزكاة واجبان توءمان ينهضان كدليل بليغ على روح التضامن في الإسلام.

٥- الفضيلة فى المعاملات الدولية وبين الأديان.

هذا فصل جديد كل الجدة في الأخلاق الإسلامية، إذ لم تتح لليهودية والمسيحية وقت تأسيسهما فرصة أن يكون لهما علاقات مع دول معادية. بينما الرسول ﷺ كان على علاقات دائمة مع أمم وديانات

مختلفة، تارة مسالمة وتارة معادية، خلال عشر سنوات، بصفته سياسياً وقائداً إلى جانب صفة المرشد الروحي والأخلاقي. ومن هذه المبادئ أن الحرب الشرعية لا تقوم إلا من أجل دفع العدوان، ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ ﴾ [البقرة ١٩٠]، ويجب أن تتوقف بمجرد انتهائه، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال:٦١].

هناك مبدأ احترام المواثيق المبرمة مع العدو، ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ﴾ [النحل ١٩ – ٢٩]

ولو بدأ العدو في نقض اتفاقه فلا يجوز مهاجمته على غرة، وإنما يجب أولا إعلانه بإلغاء عهده معنا بطريقة واضحة، ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

هذا بخلاف القواعد التي حددتها السُّنَّة.

الفصل الثـالث

الجمال والجانب الأدبي

توجد في أعماق النفس الإنسانية – كما قلنا – بصيرة داخلية تميز بين الحق والباطل، والخير والشر، مهما اختلفت صورهما بشرط أن يرى الإنسان بجلاء وبذهن صاف. فالعقول الثاقبة والنفوس المهيأة، لاتحتاج لأكثر من ذلك لكي تعتنق دعوة جديدة طالما وجدت فيها هذا الشرط المزدوج ألا وهو تعليم الحقيقة والدعوة إلى الفضيلة. وهكذا استطاع هرقل – الإمبراطور[١] الروماني رغم جهله باللغة العربية – أن يحكم على صدق الرسالة المحمدية استناداً إلى بعض الشروط الأخلاقية التي اعتقد أنها ضرورية وكافية لإثبات ربانية هذه الرسالة.

ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لعامة الناس. فما يجذب اهتمامهم فيما يقدم إليهم هو سحر الشكل الخارجي أكثر من متانة المحتوى. وأي جديد يكتسي بمظهر حقير وغير جذاب يجعلهم ينفرون منه وينصرفون عنه؛ لأنهم يتسرعون في الحكم على الأشياء بحسب المظهر قبل اختبار الجوهر واللباب. ومن هنا ندرك قيمة العون الحقيقي الذي يمكن أن يقدمه الأدب إلى العلم والحكمة عندما ينتصران للحقيقة والفضيلة.

---

(١) انظر البخاري كتاب الجهاد باب ١٠١، وانظر أيضاً ب. سان هيلير في كتابه « محمد والقرآن » ، ص ١٥٠-١٥٦.

والدعوة الإسلامية تتمتع في الناحية الأدبية بالكمال الذي لا تشوبه شائبة، فبمظهرها وجوهرها تشبع حاجة من يفهم العربية. والقرآن – حامل هذه الرسالة – كان وسيظل النموذج الذي لا يبارى في الأدب العربي. وإذا نظرنا نظرة مجردة إلى صفاته الأدبية نستطيع أن نقول إنه يعتبر المثل الأعلى لما يمكن أن يسمى أدباً بوجه عام. ففي العصر الذهبي للغة العربية، ما أن ظهر محكم التنزيل حتى اكتسح الحماس للشعر والنثر. وأنزلت المعلقات السبع من باب الكعبة واتجهت كل الأسماع إلى هذا الإعجاز الجديد في اللغة العربية.

فلغة القرآن مادة صوتية، تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر، وخشونة لغة أهل البادية، وتجمع – في تناسق حكيم – بين رقة الأولى وجزالة الثانية، وتحقق السحر المنشود، بفضل التوفيق الموسيقي البديع بينهما. إنها ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكاً من النثر، وأقل نظماً من الشعر، يتنوع في خلال الآية الواحدة ليجذب نشاط السامع، ويتجانس في آخر الآيات سجعاً، لكي لا يختل الجرس العام للوقفات في كل سورة. أما كلماته فمنتقاة من بين الكلمات المشهورة، دون أن تهبط إلى مستوى الدارج، ومختارة من بين الكلمات السامية، التي لا توصف بالغريب إلا نادراً. وتمتاز بالإيجاز العجيب في الكلام والتركيز الشديد في المعنى والوضوح الأخاذ، مع العمق والمرونة والإيحاء والإشعاع في كل جانب مثل أوجه قطعة الماس البراقة. وإنها لحقيقة مقررة أن جميع الناس

على اختلاف مستوياتهم العلمية والفكرية يلتقون على فهم القرآن، كأن كل عبارة فيه مفصلة تفصيلاً بما يناسب عقلية كل منهم... وكل هذا في موضوعات غير مطروقة في الأدب الجاهلي، بحيث أنه يحق لنا أن نؤكد من الناحية اللغوية البحتة، كان ظهور القرآن خلقاً للغة جديدة ولأسلوب جديد.

أما ما يبدو أنه فوق طاقة البشر حقاً في الأسلوب القرآني، فهو أنه لا يخضع للقوانين النفسية التى بمقتضاها نرى العقل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل وبنسب عكسية. بينما في القرآن لا نرى إلا تعاوناً دائماً بينهما في كل الموضوعات، ونرى الكلمات تسعى بقوة وتجمع في نفس الوقت بين التعليم والإقناع والتأثير، وتمنح القلب والعقل نصيبهما المنشود، علاوة على احتفاظ الكلام دائماً بهيبة مدهشة، وبجلالة قوية لا تتأرجح ولا تضطرب.

والعربي الأصيل الذي تسري في دمه غزيرة اللغة، كان يدرك بفطنته وفطرته ويشعر أن القرآن آت من السماء ينفذ إلى القلوب ويبهر الأبصار. حتى إن الكفار أدركوا هذا التأثير في عهد الرسول، واختلفوا في التماس التفسير والتعليل له إلى درجة أن أطلقوا عليه (سحرا). إذ نلاحظ في القرآن في الحال لهجة فريدة لا تنبعث عن قلب رجل وليست سوى نفحة ربانية. أما أحاديث الرسول ﷺ فإنها معروفة ببلاغتها الرفيعة، ويتميز

عنها النص القرآني تميزاً صارخاً.

وينبغى أن نركز بعض الجهد في هذا الفصل على نقطة غفل عنها جميع المستشرقين فضلاً عن بعض المسلمين، وهي طريقة القرآن الكريم في معالجة أكثر من موضوع في السورة الواحدة.

فقد رأى بعض المستشرقين بنظرة سطحية ذلك وزعم عدم توافر التجانس والربط الطبيعي بين المواد التي تتناولها السورة بل وأكثر من ذلك - لم ير القرآن في جملته إلا أشتاتاً من الأفكار المتنوعة عولجت بطريقة غير منظمة وبدون أي ربط منطقي بينها. بينما رأى البعض الآخر أن علة هذا التشتيت المزعوم ترجع إلى الحاجة إلى تخفيف الملل الناتج من رتابة الأسلوب، والحزن المترتب على تكرار النغمة مما يتنافى مع المثالية في الأسلوب العربي.

وهناك فريق ثالث رأى في الوحدة الأدبية لكل سورة نوعاً من التعويض لهذا النقص الجوهري في وحدة المعنى، بينما فريق آخر يضم غالبية المستشرقين رأى - وهو يحاول تبرئة الرسول - أن هذا العيب يرجع إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه ورتبوها على شكل سور.

والحق أن هذه التفسيرات جميعاً لا تصلح للأخذ بها. إذ أن السنة المطهرة والأثر الصحيح متفقان على أن السور كانت بالشكل والترتيب

والتركيب الذى نقرأها بها اليوم منذ حياة الرسول ﷺ.

فعندما نريد أن نقدر جمال لوحة مرسومة لا ينبغي أن نحصر نظرنا في جزء ضيق منها، بل يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء، ليتسع مجال الرؤية فنحيط بالكل في نظرة شاملة. بمثل هذه النظرة ينبغي أن ندرس كل سورة لنقدر أبعادها الحقيقية. ولقد قمنا في الماضى أثناء تدريسنا بالأزهر بتطبيق هذه القاعدة في دراسة لإحدى السور المدنية (وهي سورة البقرة) ولسورتين مكيتين (هما سورتا يونس وهود) وقد كانت مقررة في البرنامج الدراسي.

والواقع أننا وجدنا أكثر مما كنا نتطلب من بحثنا. فقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن لهذه السور تخطيطاً حقيقياً واضحاً، ومحدداً يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة.

فإذا أخذنا في اعتبارنا التواريخ التي لا حصر لها، والتفتيت المتناهي في نزول الآيات، ولاحظنا أن نزول الوحي بوجه عام كان مرتبطا بظروف ومناسبات خاصة. فإن ذلك يدعونا إلى التساؤل عن الوقت الذي تمت فيه عملية تنظيم كل سورة على شكل وحدة مستقلة. وهذا التساؤل يضعنا أمام نقطة محيرة.

فسواء افترضنا أن هذا الترتيب كان قبل اكتمال نزول القرآن أو بعد اكتماله، فقد كان المتوقع أن يتم إتباع إما الترتيب التاريخي لنزول الآيات،

وإما الترتيب المنطقي البسيط بحسب تجانس الموضوعات. إلا أنه من الملاحظ أن السور القرآنية تتنوع موضوعاتها ولا تخضع لأي فرض من الفرضين أو لأي ترتيب من الترتيبين السابقين.

مما يدعونا إلى ترجيح وجود تصميم أو تخطيط معقد يكون قد وضع في وقت سابق على نزول القرآن. ولكن سرعان ما نميل إلى الانصراف عن هذا الافتراض بسرعة بسبب مدى الاستحالة التي ينطوي عليها تصور أن يوضع نظام سابق كهذا يتم به ترتيب تحكمي بين فقرات حديث سيطلب إلقاؤه أو إظهاره على مدار ثلاثة وعشرين عاما، وبما يتفق ويتناسب مع عديد من الملابسات والظروف والأحداث التى تستدعي إظهار هذا الحديث، والتي لا يمكن توقعها أو التنبؤ بوقوعها أو بتوقيت وقوعها. غير أن السنة النبوية تؤكد لنا هذا الافتراض الغريب وتؤيده فإن الرسول ﷺ فور نزول الوحي عليه - كان يأمر بوضع كل جزء منه صغيراً أو كبيراً في سورة لم تكن قد اكتملت بعد، وفي مكان محدد منها، وفي موضع رقمي من آياتها، وفي ترتيب لم يكن دائماً هو الترتيب التاريخي. وبمجرد وضع الآية أو الآيات في هذا الموضع أو ذاك، بقيت فيه إلى الأبد، دون أن يطرأ عليها أي تحويل أو تصحيح أو تعديل أو وصلات.

من هذا نقول إنه لا بد أنه كان هناك تصميم لكل سورة، فضلاً

عن وجود تصميم أو خطة عامة للقرآن في جملته، بمقتضاها كان كل وحي جديد يوضع في مكانه تواً بين آيات هذه السورة أو تلك من السور المفتوحة.

وكأن آيات القرآن كانت قطعاً مستقلة ومرقمة في بناء قائم في مكان، وكان يراد إعادة بنائه في مكان آخر على نفس هيئته السابقة. وإلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفوري والمنهجي في آن واحد، فيما يتعلق بكثير من السور إذا لم تكن الصحائف الخالية والصحائف التامة تمثل وحدة كاملة في نظر المؤلف؟ وهناك تخطيط آخر ذو طابع أسلوبي، وبمقتضاه نلاحظ أن الأجزاء التي ستتجاور مجهزة مقدما بطريقة معينة بحيث يتزاوج بعضها مع بعض بدون ثغرات أو تصادم.

ولا شك أن طريقة القرآن هذه ليست لها مثيل على الإطلاق، ولا يمكن لأي كتاب من الكتب في الأدب أو في أي مجال – أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو الفريد أو في مثل هذه الظروف العجيبة.

وبمعنى آخر إذا كان الاضطراب في النظام المنطقي أو الخلل اللغوي والبلاغي هما نتيجة حتمية لمثل هذا المشروع لو حاول أن يضطلع به إنسان بسبب ما يشتمل عليه من تعقيد محير ومن صعوبات جمة، ألا ينبغي أن نستنتج أن اكتمال هذه الخطة وتحقيقها بالصورة المطلوبة، لا بد وأن يستلزم تدخلاً من قوة عظمى تتوفر فيها هذه القدرة الفائقة على

إقامة مثل هذا التوافق المعجز؟ وإلا فمن هذا المخلوق الذي يستطيع أن يوجه الأحداث بما يتوافق تماماً مع هذا التصميم المرسوم؟ أو كيف يمكن أن نخرج من مجموعة مصادفات بمثل هذا البناء الأدبي الرفيع وهو القرآن الكريم؟

فإذا كانت السورة القرآنية من نتائج هذه الظروف تكون وحدتها المنطقية واللغوية في نظرنا هي معجزة المعجزات. ولقد صرح بوجود هذه الوحدة المزدوجة كثير من ذوي الاختصاص فى هذا الموضوع من بينهم أبو بكر النيسابوري، وفخر الدين الرازي، وأبو بكر ابن العربي، وبرهان الدين البقاعي، وأبو إسحاق الشاطبي. ولمراجعة هذا على بعض المختارات من القرآن، نشير إلى كتابنا « النبأ العظيم » .

إلا أن إعجابنا يصل إلى ذروته إذا أدركنا أن هذه الأجزاء المتفرقة من الآيات القرآنية قد اتبعت في نزولها تخطيطاً آخر مختلفاً تمام الاختلاف عن التخطيط الذي تحدثنا عنه في الفقرات السابقة، وما علينا إلا أن نستعرض من أولها إلى آخرها - المراحل التدريجية لهذا التخطيط الثاني خلال الثلاث والعشرين سنة: من النبوة إلى الرسالة (من ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ بسورة العلق إلى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ في سورة المدثر) .

ومن الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية، ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، ومن دعوة الرسول لأقاربه، ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ

ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، إلى دعوة مكة بأسرها، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [القصص:٥٩]، ثم القرى المجاورة، ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢] ثم البشرية جمعاء، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ومن إرساء القواعد الأساسية للإسلام (في السور المكية)، إلى التطبيق العملي (في السور المدنية)، ومن التبغيض في شرب الخمر، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩] إلى تحريمها صراحة، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠]

ومن الدعوة إلى الصبر واحتمال الأذى، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء: ٧٧] إلى المقاومة المسلحة، ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ويكفى أن نسجل هنا تاريخين على جانب من الأهمية:

الأول: تاريخ انطلاق الدعوة: يوم غار حراء وتلقى النبي ﷺ الوحي لأول مرة، ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٤ – ٥]، وأنه سيكلف بمهمة شاقة، ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥]

والتاريخ **الثاني:** وهو حجة الوداع حين أعلن الرسول أن رسالته قد تمت، وأن مهمته على الأرض قد انتهت، ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] ، وبعد ذلك لم يلبث الرسول ﷺ أن لحق بالرفيق الأعلى.

إن هذا التطور إذن كان متفقاً مع خطة تربوية تشريعية موضوعة في وقت سابق، في إجمالها وفي تفصيلها، بمعرفة منزل الوحي سبحانه وتعالى، فإذا كانت هذه الآيات ذاتها التي كانت تتبع في نزولها تخطيطاً تربوياً ممتازاً، قد تحولت بمجرد نزولها في ترتيبها التاريخي لكي تتوزع وتتجمع في شكل آخر على هيئة إطارات محددة، ومختلفة الأطوال، بحيث يظهر في النهاية من هذا التوزيع المقصود، كتاب يقرأ، مكون من وحدات كاملة، لكل منها نظامها الأدبي والمنطقي، لا يقل روعة عن النظام التربوي العام، فهذا هو التخطيط المزدوج الذي لا يمكن أن يصدر عن قلب بشر..

الباب الثالث

المصدر الحقيقي للقرآن

تمهيد

دراسة مصدر أي كتاب ينبغي أن تسبق دراسة محتواه، أما القرآن فإن دراسة مصدره تستوجب مخالفة هذه القاعدة، لأن فكرة مصدره الإلهي ليست فقط جزءاً من دعوته وإنما الجزء الأساسي منها. لأن القرآن من أوله إلى آخره، يتحدث إلى الرسول ﷺ أو يتحدث عنه ولا يتركه أبداً يعبر عن فكره الشخصي..

لكن كيف لاننسب كلام القرآن والأفكار التي يتضمنها إلى الشخص الذي جاء به؟

وكيف يمكن أن نجعل من هذا الشخص مجرد أداة استقبال يقدم كتابه جاهزاً وكاملاً كما تلقاه من مصدر خارجي وغير بشري؟

مما لاشك فيه أن محمداً ﷺ وهو يؤكد هذا، لم يكن أول من أثار قضية الوحي، بل إنه كان أكثر تواضعاً من موسى الذي تلقى التوراة – كما يقول القرآن – في لقاء مباشر بينه وبين الله تبارك وتعالى حيث سمع كلام الله ذاته أما بالنسبة إلى محمد ﷺ، فإن القرآن قول رسول سماوي، وسيط بينه وبين الله، وفيما عدا هذا الاختلاف، فإنهما متفقان في نسبه ما تلقياه إلى الله.

فأما الذين لاينكرون الوحي من حيث المبدأ العام، فمن حقهم ألا يطبقوه على ظاهرة معينة إلا بعد استنفاد جميع فرص التفسير الطبيعي لهذه الظاهرة. وإذا ما اعترفوا في النهاية بمنشئها الإلهي المباشر يكون هذا الاعتراف آخر مطاف البحث، وقرار العلم، بعد استنفاد جميع الوسائل الممكنة.

فلنبعد من بحثنا إذن الحجة التي تستند إلى الإعجاز اللغوي في القرآن والتي تؤكد مصدره الإلهي، ولنتساءل عن إمكان تفسير الأفكار التي يتضمنها القرآن بسبب آخر غير الوحي.

والواقع أن هناك بحوثاً ودراسات كثيرة قد سلكت هذه السبيل في الماضى مما يجعل البحوث الحديثة في هذا المجال مجرد تكرار لنفس الكلام القديم، وإن اختلفت في الشكل والأسلوب.

وسنتبع في هذا الباب الترتيب الزمني، فنقسم البحث إلى فصلين عن المرحلة المكية والمرحلة المدنية على التوالي.

الفصـل الأول

البحث عن مصدر القرآن في الفترة المكية

الوسط الوثني - الحنفاء - الصابئون - العناصر المسيحية واليهودية - رحلات الرسول ﷺ ومشاهداته - اطلاعاته - الأدب والأساطير الشعبية - تأملاته الفكرية الشخصية.

تحاول أبسط الافتراضات أن تجد في بيئة الحجاز المحدودة - إن لم يكن في مكة - جميع العناصر الضرورية لبناء الدعوة القرآنية ومن هذه النظرة قدم لنا «أرنست رنان» في مقال له عن «محمد ومصادر الإسلام» نموذجا فريدا لحياة العرب قبل الإسلام في القرن السادس بعد الميلاد. وبدلاً من هذا الشعب المشرك الذي تعرفه الدنيا، وضع لنا شعباً آخر لم يعرف سوى إلهاً واحداً (ص ١٠٧٠- ١٠٧١) ورسم لنا مجتمعاً في أوج حماسه الديني التقت فيه جميع الديانات، وجميع الحضارات بالإضافة إلى أن الدين كان شغله الشاغل (ص ١٠٨٩). وعلى هذا المنوال لا تعدو رسالة محمد ﷺ إلا أن تكون امتداداً للحركة الدينية التي سادت في عصره من غير أن يسبقها في أي جديد (ص ١٠٨٩). ولقد أبرز «رنان» الذوق الأدبي الرفيع لهذا الشعب، ونظرته الواقعية وأغفل سائر الصفات الأخرى التي لا تشرفه.

ولكن الصورة الحقيقية لحياة العرب في هذه الحقبة نجدها في القرآن ذاته، وتختلف عن ذلك كل الاختلاف كما سبق أن رأينا. فقد كانت حياتهم حياة «الضلال المبين »، ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وزمنهم زمن ﴿ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب:٣٣]، ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح:٢٦]، ولقد كانوا يحتفظون في عاداتهم ببعض الآثار من ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مثل الحج، ولكن هذه الآثار كانت تختلط بأخطاء وأوهام كثيرة: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا ﴾ [البقرة :٢٠٠].

كما كان الحاضرون في سوق عكاظ لا يتناظرون في الدين وإنما في المفاخر الدنيوية، ولا نكاد نجد أثراً للدين في أشهر القصائد المعروفة بالمعلقات الذهبية.

وفي وسط هذه الجموع من الناس ذات الجهل المفضوح، كانت تتميز صفوة قليلة تعد على الأصابع وتعرف باسم «الحنفاء » - أي الثائرين على الرأي العام - وهي الفئة التي اعتمد عليها «رنان » لتصوير خصائص مجتمع العرب في هذا العصر. فماذا كانت دعوة هؤلاء «الحنفاء»؟.. يقينا: لاشيء! سوى تمردهم على عصرهم وتطلعهم إلى دين صحيح حاولوا

التماسه خارج محيطهم ولم يكن عندهم عنه أية فكرة دقيقة قادرة على أن تنبئ عن دعوة القرآن ولو من بعيد.. وكل ما يمكن استخلاصه من وجودهم هو ما صرح به «رنان» ذاته عن حق، هو وجود «نوع من القلق والانتظار المبهم (ص ١٠٩٠). وعموماً مهما ردد الناس من عبارات: الله والدين والأنبياء والكتب، والجنة في هذه الفترة، فلم يكن لهذه الكلمات مدلول في نفوسهم عن أية فكرة واضحة ومتميزة.

وأولى من هؤلاء، الحديث عن الصابئين الوارد ذكرهم بالقرآن: ﴿وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾[البقرة: ٦٢]و[المائدة: ٦٩] و [الحج: ١٧].

ويقصد بهم طائفة وثنية متميزة (صابئي حران الذين ينسبون أنفسهم إلى صابي بن ست، الذي كان يدعي نشر تعاليم ديانة أبيه، وأنه كان عنده كتابها باللغة السريانية)، أو أنها طائفة يهودية مسيحية تسمى ﴿الصابئة﴾ [من مسيحيي يوحنا المعمداني)، أو أنها الطائفة الأولى التى كانت تنتحل هذا الاسم. المسألة محل خلاف.

وكانت أفكار الصابئين الجوهرية وشعائرهم الأساسية معروفة وقد فندها القرآن والسنة. وكانت بعض عادات هذه الفرقة قد انتشرت فى قريش إلى درجة يصعب عزلها عن الوثنية التي كانت سائدة. مثل تأليه الملائكة والكواكب وتأثيرها على الأحداث الأرضية. ونصيب

الأسد الذي كان يؤخذ من القرابين ليقدم إلى الآلهة الأقل درجة بدلاً من تقديمها إلى الله، وعبارة الابتهال في الحج التي كانت تتضمن الشرك بالله...ولهم شعائر أخرى وعادات تبعد تماماً عن العادات الوثنية والإسلامية. فقد كان الحج عندهم يتم بحران بالعراق، وكانت قرابينهم تحرق تماما، وكانوا يحرمون تعدد الزوجات، ولا يزاولون الختان، وكانت عبادتهم طقوساً يقصد بها الكواكب تؤدى ثلاث مرات يومياً وقت الشروق والزوال والغروب. وهكذا نرى أن الوثنية التي كانت سائدة بالحجاز لاتقدم لنا تفسيراً سليماً عن مصدر القرآن.

لعل البيئة اليهودية والمسيحية وقتئذ تلقي لنا بعض الضوء على هذا الموضوع. ولن نعول كثيراً على قصة الراهب بحيرى، والتي تذكر أن محمدا ﷺ قابله وهو في الثانية عشرة من عمره عندما صاحب عمه أبا طالب في سفره إلى الشام. فالحادثة إما أنها أسطورية. وإما أنه يتعين أخذ كل الوقائع المذكورة في الحسبان فقد كانت المقابلة في حضور جميع أفراد القبيلة، وكان دوره ﷺ دور «المسئول» لا المستمع.

وبانتهاء استجواب الراهب له خلص إلى نبوءة توقع بعثة هذا الشاب نبياً في المستقبل. فالصواب يمنعنا من اعتبار هذه المقابلة العارضة مصدراً لتعليم محمد ﷺ.

ويقال أن بعض أفراد من المغامرين الرومان أو الزنوج الأحباش

«بائعون للنبيذ أو كادحون» كانوا يعيشون في ضواحي مكة المنزوية. ويقال أيضاً: «إن الإنجيل كان قد دُرِّس في الحانات لعقول خام». فهل كان إلتقاء محمد ﷺ بالأفكار الدينية في هذه الأماكن؟ ومع ذلك فإنهم يتركوننا في الغموض والإبهام، ولا يقدمون لنا وثيقة واحدة عن علاقات فعلية من هذا النوع. علماً بأن شواغل الرسول ﷺ قبل بعثته كانت معروفة ومحددة: في الخلاء يرعى الغنم.. في التجارة مسافراً.. أو في المجتمع العام مع رؤساء القبائل.

فضلاً عن أن هؤلاء المطمورين كانوا يجهلون دينهم وكانت لغتهم الأجنبية حائلاً طبيعيًا. فإذا كان هؤلاء فعلاً مصدراً صالحاً للأخذ عنه، ألم يكن في متناول المعارضين أن يلجأوا إليهم ويحطموا طموح النبي ﷺ؟

والأفضل هو أن نتكلم عن بيئة أوسع دائرة وأغنى ثقافة. فمن المعلوم أن الغساسنة بالشام وبني الحارث بنجران باليمن كانوا قد اعتنقوا المسيحية.. وأن محمداً ﷺ في شبابه كان من وقت لآخر يسافر في تجارة إلى الشام وإلى اليمن. فلماذا لا يكون هذا المسافر العربي - بما عرف عنه من ملاحظة ذكية واهتمام فطري بالمسائل الأخلاقية - قد تأثر بأخلاق وأفكار هذه المجتمعات؟ كان هذا رأي «جولدسيهر» وآخرين.. اعتقدوا أن محمداً ﷺ قد وجد هنا الدفعة الأولى لنظامه الإصلاحي.. فهل دخل محمد فعلاً في الأراضى المسيحية الحقيقية؟ بعض الكتّاب يشكون في هذا

لعدم وجود أية إشارة في القرآن عن مظاهر المسيحية الخارجية، بينما يتوسع القرآن في الكلام عن أعماق روح المسيحية الشرقية بما يخالف مسلك الشعراء العرب الذين زاروا هذه البلاد في حين هناك كتّاب آخرون أكثر اقتراباً من الحقيقة يؤكدون أن رحلات القوافل التي صاحبها الرسول ﷺ لم تبعد عن سوق «حباشة» بتهامة، و«غراش» باليمن.

وحتى لو اتصل بالمسيحية بالفعل فماذا كان سيجد؟ يقول «ج. سال»: كان العالم المسيحي قد تعرض منذ القرن الثالث لمسخ لصورته، بسبب أطماع رجال الدين والانشقاق بينهم والخلافات على أتفه المسائل.. وكان المسيحيون في تحفزهم لإرضاء شهواتهم، واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة.. قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية من الوجود. وفي هذه العصور ظهرت وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد، ووجدت الكنيسة نفسها ممزقة بعد مجمع «نيقية » بسبب الخلافات.

أما بالنسبة للكنيسة الغربية. فقد بلغ الخلاف على كرسي الأسقفية بروما بين «دماز» و «أرزيسيان» إلى حد اللجوء إلى العنف والقتل. وساد الفساد في الأخلاق والعقيدة بين الأمراء وبين رجال الدين، واستتبع ذلك فساد الشعب حتى صار شغل الناس الشاغل هو جمع المال بأية وسيلة لإنفاقه بعد ذلك على الترف والرذيلة.

ولقد كتب تايلور في كتابه «المسيحية القديمة» (المجلد ١ ص ٢٦٦)

«إن ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه.. لم يكن سوى خرافات منفرة، ووثنية منحطة ومخجلة، ومذاهب كنسية مغرورة، وطقوس دينية منحلة وصبيانية، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة، بأنهم رسل من قبل الله، مكلفين بإصلاح ما ألم بالعالم من فساد...». وعندما أراد «موشايم»وصف هذا العصر، أبرز التعارض بين المسيحيين الأوائل والأواخر، وخرج بأن الديانة الحقيقية في القرن السابع كانت مدفونة تحت أكوام من الخرافات والأوهام السخيفة، حتى إنه لم يكن في مقدورها أن ترفع رأسها. وكأن هذه الصفحات قد كتبت لتفسير الآية: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

فهل كان مسلك العرب الذين تنصروا أحسن حالاً؟ لا.. لأنهم احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم الوثنية القديمة، وقال علي بن أبي طالب إن ما أخذه التغالبة من المسيحية لم يكن سوى شرب الخمر، ويقول «هوارت » «مهما يكن مدى إغراء فكرة تأثر محمد بما شاهده من تطبيق المسيحية بسوريا، فإنه يتحتم استبعادها، لضعف الوثائق والأسس التاريخية الصحيحة» .

فلا شك أن المواد التي صادفها محمد ﷺ حتى الآن تجمعت في بناء يصلح للهدم. ولم يكن فيها ما يصلح ليقيم عليه بناءه الجديد..

ولنوسع حقل البحث قليلاً، إلى عالم المسموع، وبيئة الكتب والإطلاع. فقد يتبادر إلى الذهن أن محمدا ﷺ قد استخلص دروسه من مطالعاته المباشرة للكتب المقدسة سواء كانت مسيحية أو يهودية أو غيرها(١).

ولكن هل كان محمد ﷺ يعرف القراءة والكتابة؟ يجيب القرآن بالنفي ويبرهن بأمية الرسول الكريم على ربانية تعليمه. فهو أمي من شعب أمي(٢) ولم يسبق له أن قرأ كتابا أو كتب بيده، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ

---

(١) ذهب الدكتور «س. تسدال» إلى حد الادعاء بأن بعض مبادئ الإسلام مستقاة من الزرادشتية.

(٢) حاول «لوبلوا» اقتداء بغيره من الكتّاب أن يثبت العكس. استناداً إلى رواية مضمونها أن الرسول وهو في فراش الموت طلب أن يؤتى بما يكتب عليه وصيته بشأن الخلافة. وهي حجة غير كافية لأن الرواية لم تقل أنه كتب بالفعل.. ومن جهة أخرى فإن فعل «يكتب» بالنسبة للرؤساء والعظماء بوجه عام – معناه «يملي أو يضع خاتمه»، ولهذا قيل في صلح الحديبية « بينما يكتب هو وسهيل إذ طلع...» في حين أن الذي كان يكتب هو عليّ بإملاء الرسول. وهناك تعليل آخر حاولوا استنتاجه من حادث عرضي وقع أثناء الصلح. وذلك أن الرسول عندما أمر علياً بإلغاء اسم الرسول «محمد رسول الله..» هل يجرؤ عليّ على الشطب، وعندئذ سأله الرسول عن مكان الكلمة المطلوب إلغاؤها وشطبها بيده.. إلى هنا وليست هناك خلافات، إلا أن هناك رواية صحيحة تضيف أن الرسول كتب محل الكلمة المشطوبة «محمد بن عبد الله» وهي بذلك تنسب في ظاهرها الكتابة إلى الرسول ﷺ. إن محاولة الإفادة من هذه النقطة الضيقة لإثبات معرفة الرسول للكتابة يعتبر نسياناً للواقعة ذاتها التي تقول إنه لم يستدل على الكلمة المطلوب شطبها إلا بإرشاد الكاتب. وأيضاً إغفالاً لما هو موضح في نفس المكان بأن الرسول «لايحسن الكتابة». إن أي محاولة لإثبات العكس هي أضعف من أن تزعزع هذه الحقيقة.. لأن حياة محمد ﷺ معروفة في أدق تفاصيلها وقومه لم يكونوا بهذه السذاجة.

مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ولا شك أن معارضي الرسول كانوا يعرفون هذه الأمية جيداً. لأنهم قالوا عنه: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[الفرقان: ٥]، أي كتبها له غيره، ولم يقولوا: «كتبها». وهذا المعنى التبس على بعض المستشرقين. وحتى على فرض أنه كان يعرف القراءة، فقد كانت هناك عقبة يستحيل تذليلها إذ لم تكن في هذا الوقت قد وجدت بعد توراة ولا إنجيل باللغة العربية[١].

ووجود هذه الوثائق بلغات أجنبية جعلها حكراً لبعض العلماء المتحدثين بأكثر من لغة.. الذين وصفهم القرآن بالبخل بما عندهم من العلم: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]..

وعلى كل حال لم ينبئنا التاريخ عن أي اتصال محدد. فطالما أن الكلام يدور فى العموميات فإنه يصعب التحكم فيه وعندما نطالب بالتحديد يحدث التناقض والتخبط.

ولكن إذا كان محمد ﷺ لم يحصل على أفكاره الدينية لا من نصوص التوراة والإنجيل مباشرة، ولا من العلماء ذوي الاختصاص، أليس من المحتمل أن يكون قد جمعها من بعض الشعراء العرب اليهود والنصارى

---

(١) يؤكد الدكتور «جراف» أنه لم تكن هناك حاجة إلى إنجيل باللغة العربية إلا في القرن التاسع والعاشر.. ويقول القس «شيدياك» بأنه لم يتمكن من الرجوع بتاريخ أقدم ترجمات العهد الجديد باللغة العربية إلى أبعد من القرن الحادي عشر.

أو ما شابههم؟

يوضح القرآن أن الرسول ﷺ لم يكن يألف الشعر بوجه عام، بل اعتبره القرآن بالنسبة له لهواً لا يليق بشخصه.

ثم نتساءل عن التعليم الذي يمكن أن يخرج من هذا النوع من الأدب؟

وهنا نجد اتجاهين في الأدب الجاهلي:

الأول أن بعض الشعراء مثل الأعشى كان يهتم بوصف التقاليد والطقوس الكنسية - وهو ما لا نجد له أثراً في القرآن، بل لقد كان اهتمامهم ينصب أكثر على الخمر- التي وجه إليها القرآن ضربته القاضية.

أما النوع **الثاني** من الشعر فقد كان يكاد يتخصص تماما فى الأفكار الدينية، وقصائد أمية بن أبي الصلت أصلح نموذج لهذا النوع. ولاسيما في وصف الحياة الأخروية وقصص الديانات القديمة، وفي بعض المواضع بنفس عبارات القرآن.

إلا أن أصالة شعر أمية غير مقطوع بصحتها، وأمية لم يدع الأصالة والإلهام، وإن محمداً ﷺ وأمية قد عاصر كل منهما الآخر وهما من نفس العمر تقريباً، فضلاً عن أن أمية عاش واستمر في قرض الشعر إلى ما يقرب من ثماني سنوات بعد نزول آخر آية مكية. فمن التعسف إذن أن

نقول: إن هذا الشعر كان سابقاً للقرآن من حيث التاريخ. ولنأخذ في اعتبارنا موقف خصوم النبي ﷺ الذين كانوا دائما على يقظة لأقل ثغرة ليوجهوا إليها ضربتهم، وإذن لكان من السهل عليهم أن يضعوا يدهم على المسروقات من شعر أمية الذي لم يكن قد جف مداده بدلاً من أن يوجهوا اتهاماتهم في كل اتجاه حتى وصلت إلى وصم الرسول ﷺ بالجنون لتفسير ظاهرة القرآن العجيبة.

ومن هذا نخلص - إن لم يكن بتأكيد، فعلى الأقل باحتمال كبير - بأن القرآن هو الذي كان أساس الإنتاج الأدبي في عصر نزوله، كما كان يقيناً أساسه في العصور التالية. وقد أثبت نقد شعر أمية بصفة خاصة أنه يرجع إلى عدة مصادر مختلفة وهذا ما لاحظه «هوارت » فعندما يتكلم هذا الشاعر عن وصف النار كان يقلد التوراة، وفي وصف الجنة يستخدم عبارات القرآن، وفي قصص التاريخ الديني يلجأ إلى الأسطورة الشعبية.

وتبقى أمامنا مرحلة أخيرة في مجال التنقيب عن المصادر الطبيعية الخارجية للقرآن. ألا وهي الأفكار الشعبية.

من غير المقبول عقلاً الادعاء بأن محمداً ﷺ كان يعيش في عزلة تامة تجعله أجهل من شعبه في هذه النقطة. ويبدو من خلال القرآن أن هذا الشعب قد توفرت عنده بعض المعلومات عن الأديان السابقة، مما جعله يطلب من الرسول ﷺ أن يأتي: ﴿بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء:٥]،

ويستند في معارضته على ما سمعه: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [ص:٧]، ويقارن ملة عيسى بعقيدة الوثنية... الخ. ولكن هناك أسباباً كثيرة تحول بيننا وبين أن نوسع من خيالنا في هذا الشأن.. إذ من الملاحظ أن الاهتمام – حتى من جانب الذين سافروا وتعلموا – كان ينحصر في أشياء أخرى غير الأمور الدينية.. فضلاً عن سكوت التاريخ عن الدرجة الفعلية للمعارف المدونة التي كانت عند هذا الشعب الأمي الغافل.

والواقع أن تصور هذا الشعب على درجة من العلم تؤهله للمشاركة في العلوم التي اقتصرت معارفها على بعض العلماء المعدودين في ذلك الوقت، تعد فكرة غريبة لا تستقيم مع الحقائق المقررة، فلم يسبق في أي عصر من عصور التاريخ – وعند أكثر الشعوب تحضراً وعلماً – أن وجدنا مثل هذا الربط بين الجاهل وبين العالم المتخصص.. والقرآن لم يلتزم الصمت عن جدة تعاليمه بالنسبة للعرب بما فيهم النبي ﷺ، فضلاً عن عدم علمهم بها قبل نزول الوحي على الرسول: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]، و ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩] و ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف:١٠٢]، فإذا كان الأمر

على خلاف ذلك ماذا كان ينتظر من أعداء الإسلام؟

ونظراً لأن الأفكار التي كانت رائجة في هذا المجتمع لم يكن لها اتجاه واحد، بل كان لكل من المشركين والصابئين ورجال الدين والفرس واليهود والنصارى أسلوبهم الخاص في عرض الحقيقة، ففي أي فريق كان الرسول ﷺ يستطيع أن يضع ثقته؟ وعلى أي دعوة من هذه المتناقضات يعتمد؟ وهل كان محمد ﷺ يستطيع أن يثق بكل بساطة في علم الجماهير وهو الذي كان يقف مما يرويه العلماء موقف التحدي؟ وهب أنه حرص على أن يقص علينا عقيدة كل طائفة وكل مذهب وكل فرع من تلك المذاهب المعاصرة، فأي خليط مخيف كنا سنجده في القرآن: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وهنا يتعين علينا إدخال عامل جديد ألا وهو العامل الشخصي.

فقد يُظَن أن الرسول ﷺ وهو في تعبده في حراء قبل نزول الوحي، أو وهو في خلوته أثناء رعي الغنم - كان ينطلق في تأملاته العميقة باحثاً عن الحقيقة في هذا الموضوع أو ذاك، وبعد البحث يقوم بالاختيار والتحديد..

وهنا يجب التمييز بين مجالين من مجالات المعرفة الإنسانية ألا وهما معرفة الأحداث الواقعية (الأمبيريقية) والمعرفة العقلية. فالتاريخ الإنساني لا يخضع لمنطقنا؛ لأنه قد يشتمل على أحداث تتعارض مع ما

يقبله العقل. فلا يستطيع محمد ﷺ بانطوائه على نفسه أن يكتشف حادثاً ما وقع في تاريخ ما من الزمان الغابر، ولهذا تتركز الجهود على المقارنة بين القصص الديني في القرآن، وبينه في الكتب المنزلة السابقة للتوصل إلى السبب الذي نتج عنه هذا التوافق العجيب.

وقد تكون التأملات العقلية ذات قيمة عظيمة في مجال الكشف عن الحقائق الخالدة.. فما هى حدود العقل الصافي في مادة الدين؟ إنها ضيقة بلا شك.. لأن العقل يستطيع أن يثبت ضلال الوثنية والخرافات وفراغها وعدم جدواها، ولكن متى أزاح ذلك عن طريقه فماذا يبني مكانه؟ فليست هناك دعوة أو مذهب أو نظرية تنبني على حقائق سلبية. ومن الأرجح أن محمداً ﷺ قد وجد نفسه في مثل الحال الذي يرسمه لنا القرآن حزيناً وكأنه يئن تحت حمل ثقيل: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۞ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح:٢-٣]، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧].

وهب أن اجتياز المرحلة الأولى كان سريعاً، فإن معرفة الله سبحانه وتعالى ليست هي كل العلم الديني الموجود في القرآن. والطريق الموصل إلى علوم القرآن طويل ومتعثر إن لم يكن مسدوداً أمام عقل الإنسان الذي يعتمد على إمكانياته المحدودة. فبأي إلهام استطاع محمد ﷺ أن يكتشف صفات الله العديدة، وأسماء الله الحسنى، وعلاقة الله بالكون المنظور وغير المنظور، ومصير الإنسان بعد الموت... ومن غير أن يتراجع

في حقيقة واحدة سبق أن أعلنها، ومع احتفاظه في نفس الوقت بتوافقه العجيب مع حقائق الكتب السماوية السابقة والمحفوظة بعناية تحت يد العلماء؟ لا شك أن العقل مهما بلغ لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في هذا السبيل بمثل هذه الثقة وهذا الوضوح ما لم يكن له عون ومدد من تعاليم إيجابية خارج نطاق البشر. والقرآن يؤكد هذا، ويقرر أن محمدا ﷺ لم يكن يدري قبل نزول الوحي عليه: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. هذا فضلا عن البناء التشريعي بمظاهره المختلفة، الأخلاقي منها والاجتماعي والتعبدي. فهل كان قادرا على هداية غيره وهو يجهل كل ذلك؟

الفصــل الثــانى

البحث عن مصدر القرآن فى الفترة المدنية

هل أثر انتقال الرسول ﷺ إلى بيئــة جديـدة، واتصاله بأهل الكتاب على سلوكه ومصدر علمه؟

بعد أن جبنا الآفاق المكية في عجل وتوصلنا إلى نتيجة سلبية أينما بحثنا، كان يتعين علينا أن نصدر حكمنا الآن، لو لم يطرأ أي تغير على مسيرة النبوة المباركة. هذا التغيير الذي حدث بالهجرة على وجه التحديد إذ انتقل الرسول ﷺ إلى جو مرحب ودود، يحوطه فيه أتباعه الأقوياء المخلصون، وأصبح على اتصال بطائفة منظمة دينيا، ولها كتابها المقدس، هم يهود المدينة.

فإذا استعرضنا بصفة عامة موقف القرآن من اليهود.. فهل نجد القرآن يعتبر هذا المجتمع الجديد مثلاً صادقاً للفضيلة المنزلة من عند الله وبالتالى جديرا بالاتباع والتأسي؟

نلاحظ أن موقف القرآن من اليهود متباين عن موقفه من المجتمع المسيحي. فإذا تكلم عن المسيحيين بصفة خاصة نجده – إذا لم يثن عليهم، ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ

ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢] فعلى الأقل يوجه إليهم بعض اللوم في لهجة مخففة نسبيا، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤].

أما إذا تحدث إلى اليهود في ذلك العصر أو إلى أهل الكتاب عموماً، فإن موقف القرآن يختلف. فهم في نظره لا يتبعون ما أنزل إليهم، وإنما يتبعون إلهام الشياطين، ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل:٦٣]،

وعندما ألمح إلى ما أوقعه يهود اليمن بالمسيحيين بنار الأخدود اعتبر هذه الجريمة تآمراً مع سبق الإصرار على الإيمان الحق، ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤]، وعندما انتقل القرآن إلى المدينة احتفظ بموقفه وعدد إدانتهم، فالذين تلقوا التوراة وحفظوا نصوصها لا يراعونها بإخلاص، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٥]، وهم يتعاملون بالربا، ويلجأون إلى حيل مختلفة لأكل أموال الناس بالباطل، ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء:١٦١]، واعتماداً على بعض الأوهام والأماني يستبيحون الرشوة والكذب، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ

ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة: ٧٩]

ويعتقدون أنه ليس عليهم حساب بشأن الطوائف الأخرى، ولا التزام بالعدل في معاملاتهم معهم، ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران ٧٥].

أليس من الغريب أن نفترض أن الشعب الذي يقف منه القرآن هذا الموقف يمكن أن يكون نموذجاً يحتذي به محمد ﷺ ومصدرا لتعاليمه؟ مهما بلغ هذا الافتراض من تعارض مع المنطق فإن هذا لايمنع من بحثه ودراسته، فقد تكذب الوقائع أي حكم جزافي مسبق - فماذا يفيد بناء الإيمان على رمال متحركة؟

لقد حاول بعض المستشرقين أن يثبت أن ما أنزل على محمد ﷺ يتطور ويتعدل ويتراجع بحسب اتصاله مع المجتمع المدني المزود بالعلم. وتأثر أغلبهم بمظهرين عامين وجدوهما متعارضين مع ربانية الرسالة، وتتركز أكبر حججهم في موقف الرسول ﷺ المعادى الذى اتخذه في المدينة والذي اعتبروه تغييراً مفاجئاً بالنسبة لموقفه في مكة. وعندما نضيف إلى ذلك تعدد زيجات الرسول فى أواخر أيام حياته، يكون ذلك

في نظرهم بمثابة هدم للنظام الأخلاقي الإسلامي في مرحلته الأخيرة. وحتى المستشرقون الذين يقدرون الإسلام وهو في نشأته مضطهدا ومثخنا بالجراح، ويقدرون الرسول المسالم والمتزوج بامرأة واحدة، ينتابهم الهول عندما يرونه فيما بعد «ملطخ اليدين بالدماء»، «ومحاطاً بموكب من زوجاته» .

لقد كان هؤلاء في موقفهم هذا مدفوعين بشعورهم حتى لا يهدموا جزءاً من أيمانهم بتعاليم التوراة قبل مجيء المسيح، أكثر من اعتمادهم على التدليل المنطقي البحت. وعلى أي حال لقد أثبتنا فيما تقدم موقف القانون القرآني إزاء النقطة الأولى بما يغنيننا عن التكرار. أما النقطة الثانية فإنها وإن كانت تمس موضوع دراستنا من بعيد وهو القرآن وليس شخصية الرسول ﷺ إلا أننا سنرى كيف تبدو حياة الرسول من خلال القرآن.

تبدو شخصية الرسول ﷺ في القرآن محددة بخطوط ثلاثة: الشعور والإرادة والإيمان. فهو بطبيعته بشر كمن سبق من المرسلين: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۞ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾[الأنبياء ٧ – ٨]، وهو يأكل الطعام ويسعى لكسب رزقه، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وله مثل بعض الرسل زوجات وذرية، ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا

لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]، وأنه يقدر الجمال الإنساني، ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

أما عامل الإرادة، فهنا نراه ﷺ يتمتع بقدرة على الامتناع فيحرم على نفسه المباح من الطعام، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ [التحريم: ١]، ولقد قالت عائشة عنه إنه لم يوجد مثله في التحكم في حواسه.

ثم يأتي موضوع خضوعه المطلق لتعاليم الله تبارك وتعالى التي تعلو على نظرته وميوله، فنذكر القاعدة القرآنية التي تحدد له فئات النساء اللاتي يستطيع الزواج منهن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] والقاعدة الأخرى التي تحرم عليه أي زواج جديد مهما كانت قوة رغبته فيه أو أن يبدل زوجاته، ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، ثم القاعدة الخاصة بحالة مطلقة زيد (ابنه بالتبني)، وهي الزيجة الوحيدة المنصوص عنها في القرآن، ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ

عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴾ [الأحزاب :٣٧].

فتراه يحاول بكل جهده أن يمنع إتمام هذا الزواج، ولكن قانون القرآن يفرضه عليه فرضاً ليضع نهاية (بالنص والتطبيق العملي) لنظام تبني الأطفال في الوثنية. وهو ما يمكن تسميته الزواج بدافع الواجب رغم أي شعور معارض. وإذا بحثنا الظروف التي عقدت فيها زيجاته الأخرى، نجد أغلبها فُرضت عليه لاعتبارات إنسانية سامية مثل مواساة وتشريف زوجة شهيد، أو مهاجر مات بين أصحابه في هجرته، أو توثيق بعض الروابط القبلية التي تعاهد معها، أو إيجاد جو مناسب لعتق أسري قبيلة بأكملها... إلخ، وليس من الصعب الحكم على الطابع الأخلاقي لرجل عاش شبابه في العفاف المطلق، وبعد زواجه عاش مع زوجته الوحيدة بإخلاص ما يقرب من ثلاثين عاماً، وشرع في زواجه الثاني وهو في الخامسة والخمسين.

وإذا أخذنا في اعتبارنا مشاغله وأعباءه وهمومه العامة والخاصة مثل إقامة الصلوات الخمس وتعليم القرآن وتوزيع الصدقات العامة، والفصل في المنازعات، ومقابلة الوفود ومراسلة الملوك والحكام، وقيادة

المعارك العسكرية، وسن التشريع، وتأسيس الدولة... إلخ، وباختصار العناية بكل شيء وبكل الناس. ثم بعد ذلك قيام الليل (حتى تتورم قدماه، وساجداً حتى يظن أنه قبض..) كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن الباعث الحقيقي على الزواج لم يكن إرضاءً للغريزة البهيمية.

وأراد بعض المستشرقين أن يتوغلوا أكثر فاعتقدوا أنهم وجدوا اختلافاً جذرياً بين تعاليم القرآن في الفترة المكية وتعاليمه في الفترة المدنية. فقالوا إن القصص اليهودي والمسيحي في مكة كان في حالة تخطيط أولى. ولما اتصل محمد ﷺ في المدينة باليهود استطاع أن «يألف قصص إبراهيم وعلاقات الأنساب بين إسماعيل والشعب العربي» ولقد « عاش في البداية وهو يسيطر عليه وهمٌ جميل بأن دعوته - أي القرآن - تتفق تماماً مع كتب اليهود والمسيحيين المقدسة ولكن معارضة اليهود المريرة أثبتت له العكس».

وكانت الصلاة في البداية مرتين في اليوم والليلة. أما في المدينة فقد أضيفت إليها صلاة ثالثة هي صلاة العصر «بقصد محاكاة يهود». ولنفس السبب شرع يوم عاشوراء، وتحولت القبلة إلى بيت المقدس. وهما إجراءان تم نسخهما فيما بعد بسبب موقف اليهود العدائي من الإسلام. وهكذا يتأثر في رأيهم التشريع التعبدي بالتقلبات السياسية. وحتى فكرة القرآن عن الله طرأ عليها في نظرهم تغيير من تأثير المواقف الحربية في

الفترة المدنية «فانضمت صفة القوة والجبروت ضد الكفار المعاندين إلى صفة الرحمة ». لنعد أدراجنا كي نرى مدى صحة هذه الملاحظات.

فيما يختص بالقصص المسيحي واليهودي بوجه عام يؤسفنا ألا نجد ما يؤيد هذه الملاحظة من قريب أو بعيد. والرجوع إلى النص القرآني يثبت عكس ذلك تماماً. فالسور المكية هي التي تعرض أطوار هذا القصص بتفاصيله الدقيقة، ولم تترك للسور المدنية سوى فرصة استخلاص الدروس منه وغالباً في تلميحات موجزة.

وأما موضوع إبراهيم فقد سبق للسور المكية أن أشارت إليه، ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، بل إنها دعت الرسول إلى إتباع ملة إبراهيم الحنيف، ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

كما أننا لا نعرف شعباً له مثل ما للعرب من شغف بعلم الأنساب التي حفظوها حتى الجيل العشرين. وتذكرهم الكعبة وبها أماكن تحمل اسم إبراهيم وإسماعيل. أما موقف الإسلام من الأديان السابقة فلم يطرأ عليه أي تطور فالسور المكية تطالب أهل الكتاب بالإدلاء بشهادتهم عن الكتب المقدسة، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ

شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

في نفس الوقت الكتابيين الذين اتبعوا الشيطان وتحالفوا معه،﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣].

واحتفظ القرآن بموقفه في المدينة من العلماء الذين يستشهد بهم وهو يؤكد أن عدداً منهم لا يرغب في الإدلاء بالشهادة، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] .

وهكذا يفرق القرآن بين الكتب المقدسة ذاتها، والعلماء الذين يتبعونها بإخلاص، وبين هؤلاء الذين يسمون أنفسهم يهوداً أو نصارى، وهم يتبعون أهواءهم.

أما عدد صلوات المسلمين فنقرر أنه لا يوجد في جميع المراجع والمؤلفات الإسلامية التي اطلعنا عليها أية إشارة إلى مثل هذا التطور، ومن المؤسف حقاً أن النقاد الغربيين لا يدلوننا على الوثائق التى استقوا منها هذه الفكرة الغريبة.

لم يرد بالقرآن ذكر يوم عاشوراء، لكن علماء الحديث يقررون أن قريشاً قبل الإسلام كانت تحرص على صوم هذا اليوم. وأن الرسول

ذاته كان يصومه قبل الهجرة والأحاديث توصي بذلك. أما القول بأن الرسول اتخذ قراره في البداية لمحاكاة اليهود وأنه رجع بعد ذلك بسبب تغير الموقف السياسي، فإنه قول لا يتفق مع الوقائع المقررة.

أما بشان القبلة فإن الادعاء بأن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة (وله ما يبرره فى القرآن) كان نتيجة معاداة اليهود للإسلام، فهو إدعاء به تداخل في التواريخ. فقد بدأت عداوة اليهود عام ٦٢٥م بينما كان تحويل القبلة فى عام ٦٢٣م.

تبقى الملاحظة الأخيرة التي تتعلق بفكرة القرآن عن الله. فإن ما يستحق التأكيد حقاً هو عكس ملاحظة الناقدين. إذ إن الواقع يكذب الملاحظة. فما أكثر ظهور «إله الحرب» في السور المكية حيث يكثر قصص التاريخ القديم بشره وفساده، والعقاب الأليم الذي نزل بأممه والتهديد فيها ضمني – ولكنه دائم – للقرى التي تسلك نفس المسلك. بل إن الحروب التي صدر بها الأمر من المدينة ضد المعتدين لم تكن إلا تنفيذاً لإنذار عام وصريح وتكرر ذكره قبل ذلك بمكة، ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢]، و ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ [هود:١٢١- ١٢٢]، و ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ

كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾[الإسراء: ٥٨].

ويوجد في أساس الاعتراض الأخير وفي منشأ كثير غيره، خطأ يتصل بالفكرة الشائعة عن مصطلح «النسخ»[1] أو «الإلغاء» في الإسلام. فالباحثون من غير المسلمين يفهمونه إما بمعنى الرجوع في أمر صادر، أو اكتشاف حقيقة كانت مجهولة فيما مضى، وكلا المعنيين يخالفان المدلول الصحيح. فإذا طبقنا النسخ بمعنى «الحصول على علم جديد» على علم الله سبحانه - أي في مجال المعرفة النظرية - يكون ذلك عين الكفر واللامعقول.

وعلى العكس في المجال العملي فقد وجد النسخ بالفعل في تعاليم الدين الواحد، وفي التعاليم من دين إلى آخر «لقد قالوا لكم كذا وأنا أقول لكم شيئاً آخر ». فهل ينسخ القانون الإلهي لأن التجارب أثبتت

(١) وهو ينطوي على اللبس منذ قديم، ويعني عمل نسخة خطية كما يعني الإلغاء، ويستخدم في القانون أو الفقه بمعنى «وقف تطبيق قانون مؤقت». ولكن مع توسيع المعنى قصد به بعض المفسرين كل توضيح أو تحديد لمدلول أية عبارة. ولقد أسرف ابن حزم في استخدامه بهذا المعنى فاعتبر عبارة «إلا» «ولكن» نسخاً للمدلول العام أو المشار إليه مثال لهذا الاستخدام الغريب: فى أول سورة المزمل يقول «إلا قليلا» نسخ «لليل» و«نصفه» نسخ «إلا قليلا» و«انقص» نسخ «نصفه». ويعد ثلاث مواضع للنسخ في هذه الآية. فهل تندهش إذا ذكر أن في القرآن ٢٢٤ نسخاً. ولقد التقط المستشرقون هذا العدد دون أخذ طريقة ابن حزم في الحسبان وأضافوا إليه مزيداً.. وقالوا بأن هذا هو عدد المتناقضات الموجودة في القرآن التي اعترف بها المسلمون أنفسهم باعتبارها ناتجة عن التقلبات السياسية (الكتاب السابق رنان ص ١٠٧٩) (وس. تسدال في «مصادر القرآن» بالإنجليزية ص ٢٧٨)

أنه كان مجافياً للعدل أو كان خطأ؟ لا جدال في أن ذلك غير مقبول على الإطلاق في أمر التشريع الإلهي المنزل؛ لأن الله سبحانه لا يراجع نفسه ولا يرجع في قراره والقاعدة السابقة والقاعدة اللاحقة لهما نفس القدسية، وكل منهما وضعت في زمانها وكانت تمثل الحكمة الوحيدة. فالتغيير إذن يكمن في الأحداث التاريخية والحلول المتنوعة التي تستلزمها، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأحياناً تنص الصيغة الأولى على أنه مؤقت، ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾[البقرة ١٠٩]، و﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥]، وفي الغالب يكون ذلك مستتراً. فالمشرع الناجح يغير من نظم الناس حسب تقدم كفاءتهم وقدرتهم على الفهم والإدراك لتكوين النفوس المستنيرة والخلق المتين والأمم المنظمة.

كان الغرض من الملاحظات التي أبداها المستشرقون والتي فندناها هنا، هو أن يثبتوا - بناء على نقد من داخل التعاليم القرآنية - وجود بعض الاقتباسات من الوثائق الدينية بالمدينة. لإثبات وجود علاقة بين الرسول ﷺ وبين أهل الكتاب تلقى عن طريقها العلم منهم. فلماذا لم

يتجهوا من أول الأمر ليضعوا أيدينا على الشخص أو الأشخاص الذين تلقى محمد ﷺ منهم العلم؟ لم يجسر أي مؤرخ يقدر مسئوليته العلمية أن يفعل ذلك.

ولكن كيف لا يكون للرسول اتصال بحكماء اليهود وهو يعيش وسطهم؟ وماذا كان موقفهم منه؟ القرآن يرشدنا في هذا الشأن ويقسمهم إلى قسمين: الغالبية العظمى وكانت تعادي الإسلام حتى قبل الهجرة، وكانت تخفي علمها عن الرسول، وحاولت خداعه وبث المكائد في طريقه، وكانوا أحياناً يلقون عليه عن طريق إخوانهم أسئلة محرجة عن الروح، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء ٨٥]، وعن بعض الألغاز التاريخية، ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٩]، ويطالبونه بأن ينزل كتابا من السماء، ﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣] .

وأحياناً ينكرون نصوصاً أكد الرسول وجودها في كتبهم ولا يعترفون إلا بعد تحديهم وإثبات غشهم، ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ .. قُلۡ صَدَقَ ﴾ [آل عمران ٩٣-٩٥] و﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ

ذَٰلِكَ ﴾ [المائدة: ٤٣] .

وهكذا نرى أن هؤلاء كانوا بعيدين عن موقف الملقن المرحب، وبالعكس كان هناك فريق آخر من علماء اليهود الذين ضاقوا ذرعاً بادعاءات اليهود العنصرية وبغرورهم، وحضروا ليستمعوا إليه ويتفحصوا وجهه، وعندما تعرفوا عليه في الحال - بناء على بعض العاملات الموجودة فى كتبهم - شهدوا له بصدق رسالته، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١] .

وأشهرهم عبد الله بن سلام الذي كان اليهود يعتبرونه أوسعهم علماً وأحسنهم خلقاً وذلك قبل إعلان إسلامه مباشرة، وما أن أعلن إسلامه حتى أنكروا عليه كل ذلك في نفس الجلسة. وبين هاتين الفئتين لم يترك التاريخ مكاناً «لأصدقاء معلمين» .

أما الإدعاء بأن الرسول ﷺ تلقى علمه من عبد الله بن سلام نفسه، فإن ذلك ينطوي على تحريف للحقائق التاريخية(١) بالخلط بين دور التابع والمتبوع، وينطوي قلب ترتيب الأحداث التاريخية المعروفة لأن جوهر حقائق التوراة كان قد أعلن كله بمكة، وأن القليل من الآيات التي

---

(١) وخلط تاريخي مشابه مع فاصل زمني أكبر عن الدور المزعوم لسلمان الفارسي ومريم القبطية. والواقع أن سلمان أسلم بعد الهجرة بقليل ولم يصاحب الرسول ﷺ إلا في العام الخامس فى معركة الخندق. أما مريم القبطية فقد وصلت في العام السابع الهجري.

نزلت بالمدينة كانت تتعلق أغلبها بالحقائق الدينية المسيحية التي ينكرها اليهود. فمهما بذل المغرضون من محاولات لتجميع نقاط التشابه بين الحقائق القرآنية والحقائق اليهودية والمسيحية[1].. فلن يعدو أن يكون ذلك اصطناع أسلحة تفيد منها حقائق القرآن الذي يؤكد وجودها في الكتب المنزلة السابقة، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩] وأن شهادة علماء بني إسرائيل دليل قاطع على صدقها، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

ولكن الاتفاق شيء والاقتباس شيء آخر، وبينهما فراغ شاسع لم يحظ بأن يجد من يملأه حتى وقتنا الحاضر على الأقل.

(١) وهو ما تركزت عليه جهود الدكتور (س. تسدال) محاولًا أن يثبت أن القرآن يرتبط بالأساطير التاريخية (ص ٦١ – ٦٢) فأغفل عن عمد ذكر أي تشابه بين القرآن وبين العهد القديم والعهد الجديد. وانهمك فى الكشف عن ارتباط بعض التفاصيل فى القرآن بما ورد في التلمود والآثار اليهودية والمسيحية البعيدة عن التوراة والإنجيل.

خاتمة

الباب الثالث

لقد بحثنا افتراض وجود مصدر بشري لتعاليم القرآن، فتتبعنا الرسول ﷺ في حياته العادية وحياة الرسالة، في مكة وفي المدينة، في رحلاته واتصالاته، وتعرضنا لقدرته على القراءة، ولمدى توفر الوثائق تحت يده، فجميع سبل البحث ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أي احتمال لطريق طبيعي كمصدر للقرآن. هذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة والمفصلة في مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون.. إلخ.

فهل حاول أن يسأل الطبيعة أو يسأل نفسه؟ من المحتمل ذلك. ولكن الرد الذي يمكن أن يتلقاه لم يكن يتعدى الحقائق المبهمة والدارجة لما جرى العرف على تسميته «بالديانة الطبيعية » التي تختلف عن العلم الصحيح والحقائق المفصلة في كل مجال.

من أين ينبع إذن هذا الوحي؟ أليس من أعماق نفسه؟ إن الوقائع تثبت لنا عكس ذلك. فطابع الأفكار التي تبلغ إليه عن طريق الوحي إما تجريبي وإما فوق مستوى العقل، أي أنها بعيدة عن مجال العقل الصافي، وبعيدة كذلك عن الشعور المحصور في منابعه العادية مثل إلهام الشعراء والفلاسفة، إذ الملاحظ أن الوحي ليس أفكاراً تتبع من داخل نفسه، وإنما

هو سماع صوتي صافي أي أن الأفكار لاتلازم الحديث ولاتسبقه.

ولقد انزعج الرسول ﷺ ذاته من هذه الظاهرة السمعية في بداية الأمر.. وعندما أراد أن يلتقط آيات الوحي وجد نفسه مضطراً؛ لأن يكرر النص لنفسه كلمة كلمة أثناء تلقي الوحي، ولم يتوقف عن ذلك إلا عندما تلقى أمراً صريحاً مع ضمان بأن الله سيعلمه إياه ويشرحه له ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨- ١٩] هذه كلمة تستحق أن تسترعي الانتباه وتضعنا أمام وحي نصي بدون قيد ولا شرط.

إن الوحي تجربة عاشها الرسول ﷺ وكان معاصرو الرسول كثيراً مايحضرون نزول الوحي كشهود عيان، وشاهدوا بأنفسهم الأعراض الخارجية لظاهرة الوحي، التي كانت بالنسبة للرسول ﷺ تجربة عاشها ولم يصنعها. إنها حادث يتلقاه بكل سلبية، وليس في قدرته الهروب منه عند مجيئه، ولا في استطاعته أن يتهيأ له إذا احتاج إليه[(١)]. فضلًا عن أن كل درس من الوحي كان فصلاً جديداً يضاف إلى ذخيرته العلمية. وبعيداً عن ضوء هذا العلم الرباني، يعود النبي إلى حدود قدرته البشرية، فأمام الماضي والمستقبل، وأمام ما يصعب على الذكاء الإنساني السليم اختراق حجبه، كان لا يسعه إلا أن يضع علامة استفهام كغيره من الناس بكل

---

(١) لقد تأخر الوحي في حادث الإفك شهراً كاملاً ولم يكن في مقدور الرسول ﷺ أن يتعجله أو يتقول بشيء أو يؤكد أو ينفي الشائعات. وإذا كان الأمر بيد الرسول ﷺ ويتوقف عليه. ألم يكن يستطيع أن يفض الموضوع بلباقة ثم ينسب قوله إلى الوحي؟

أمانة وبكل تواضع.

ومعلوم موقف الرسول المليء بالخشية والتقديس نحو القرآن المنزل عليه، وإيمانه بأنه كلام الله ذاته، وعند تفسيره كان موقفه كأي مفسر أمام نص ليس له، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٨٠]، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، وكان يرتعد لفكرة أن ينسب إلى الله قولاً لم يقله مهما كان القول بسيطاً، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧]، كما كان يشعر بحرس من السماء وبمراقبين يحيطون به، ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۞ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ [الجن: ٢٧ – ٢٨].

وليس صحيحاً أن القرآن يعكس شخصية الرسول ﷺ ففي أغلب الأحيان لا يذكر شيئاً عنه ولا تجد أقل صدى لأحزانه، وإذا ذكر شيئاً فلكي يحكم عليه أو يضبط سلوكه طالما أن الأمر يتعلق بالسلوك الأخلاقي. وهنا نجد التعارض جلياً بين السلطة التشريعية والنفس الخاضعة المستسلمة.. وليس من النادر أن يتضمن الدرس اللوم[١] لأقل

(١) عن الأسرى (الأنفال: ٦٧) الإذن للمنافقين (التوبة: ٤٣-١١٢) عدم العناية بالأعمى (عبس:١-١٠).

مخالفة منه للمثل الأعلى المنشود[١].

وطالما أنه ليس لديه تعاليم صريحة من الوحي في أمر ما، فهو ذو طبيعة خجولة حيية، ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

حساساً لما قد يقال عنه، ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

لا يقطع دون أصحابه برأي، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، معترف بعدم علمه بمصيره الشخصي ومصير غيره، ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأحقاف: ٩].

---

(١) وإذا بحثنا الوقائع التي اعترض القرآن بشأنها على الرسول ﷺ نندهش أن نجد أنها تتصف بخصائص مشتركة ﷺ وهو أنا أمام حلين كل منهما مباح (فى الغالب يوجد نص صريح) (محمد: ٤) (النور: ٦٢) (التوبة: ٨٠) (الأحزاب: ٤) (الأحزاب: ٤٨) اختار الرسول ﷺ الحل الذي رآه أنسب للصالح العام، وكان أوفق الحلين فى ذلته أمام أي عقل إنساني (التوبة: ٤٧). أما في نظر الحكمة الإلهية. فقد كان الاختيار ذا معنى أقل فى الدرجة ﷺ مبكراً قليلاً (في الحالتين الأوليين) متسامحاً قليلاً (الحالة الثالثة) أقل جرأة (الحالة الرابعة). أو مستهدفاً غرض غير ممكن التنفيذ (الحالة الخامسة).

ولكن بمجرد أن يتلقى علمه من الوحي نراه يبلغ رسالته في ثقة وقوة، ويقف موقف المعلم والمربي لجميع الناس، ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ [آل عمران: ٢٠].

ومنذ قبل الهجرة يعلن أن من جوهر رسالته هداية بني إسرائيل، وبوجه عام جميع الأمم التى تلقت ديناً سماوياً، وأن يوضح لهم الحقيقة في منازعاتهم وخلافاتهم، ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]، و﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦].

وعندما يصدر حكماً لا يجامل أحداً، ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥] .

فوراء هذه الدفعة الصلبة قوة عظيمة ليست قوة هذا الإنسان ولهذا نراه يتمتع بروح لا تضطرب، وبإيمان لا يتزعزع في معية الله وعونه، ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ

كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ [التوبة: ٤٠]، ويعرض نفسه وأهله لأخطار المباهلة، ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١]، بينما يتراجع المترددون المتشككون.

وأمام هذه الأدلة الكثيرة القاطعة اتفق كثير من الكتاب المسيحيين(١) - الذين يبحثون عن الحقيقة في نزاهة - على أن النبي العربي ﷺ يتمتع بإخلاص وصدق نفسي يجعلانه ذا قوة بالغة في التأثير والإقناع.

إلا انه لا يترتب على تقرير هذا الإخلاص النفسي اعتبار الوحي من مصدر رباني. فقد يكون الشخص ضحية أوهام لا شعورية، فتظهر فجأة فى ذهنه أفكار وتعبيرات يظن أنها جديدة تماماً، بينما هو في الواقع يجتز المعارف القديمة والمدفونة في أعماق نفسه. بل من المحتمل أن يعتقد أن متحصلاته العلمية الحديثة أتت إليه من طريق الوحي والإلهام، طالما أنها تؤكد في نفسه إيمانه بإلهامه الشخصي، وهو لا يدري عن مصدرها الحقيقي شيئاً.

غير أن هذه الأوهام، وهذا الضعف في الذاكرة، أعراض حالة ذهنية

---

(١) ومنهم «اندرا» و«ج. سان هيلير» و«كارليل» و«جولد سيهر» و«ماسينيون» و«نولديك تربين».. إلخ.

غير سوية، وليست لها صلة على الإطلاق بالحالة التي نحن بصددها لا من حيث الموضوع ولا من حيث الشخص: فمن حيث الموضوع نرى إما انعدام المصادر الشعبية، وإما شائعات غامضة ومتناقضة، لا تنهض لتفسير استقامة الخط الذي اتبعه القرآن، وتفسير خطواته الثابتة الفاصلة. وأما من حيث الشخص ذاته، فليس هناك أدنى علامة تشير من قريب أو بعيد إلى خلل عقلي، بل العكس هو الصحيح، وشهادة «رنان» هى خير دليل« لم يخلق عقل قط بمثل صفائه، ولم يوجد إنسان قط تحكم مثله في فكره» [المرجع السابق ص ١٠٨٠). ومضاهاة الحقائق النابعة من الحالتين، يمكن أن ترشدنا في حكمنا بمدى إيجابيتها حسب درجة توافقها أو اختلافها.

فبعد أن مر محمد ﷺ بالتجربتين يتكلم بذهن واع عن اتصاله بالعالم المنظور وعالم الغيب، بالمادة وبالروح. إنها تجربة عاشها وتحقق منها وتكررت معه آلاف المرات. فقد استمع بكل وضوح إلى الرسول المتحدث إليه باسم الله، ورآه بعينيه بوضوح كامل في شكله العظيم، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ٩ – ٢٠]

ورآه عدة مرات، ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ * عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ * إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١١– ١٧]، وهل يجوز أن ننكر على إنسان سليم البدن والعقل ما رأى، ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢].

إلا أننا - نحن المستمعين - لا نستطيع أن نمر بنفس التجربة، ولا أن نعيشها كما عاشها هو. هذا صحيح، ولكن لدينا من وسائل المراجعة ما يساعدنا على أن نتحقق مما إذا كان هذا مجرد هلوسة أو ظاهرة مرضية «تنتاب ذوي القدرات الخارقة وحدهم» أو أن صوت الحق ذاته هو الذي يلهمه. فعلينا إذن مراجعة محتوى تعاليمه ومضمونها، وليس تأكيده واقتناعه بها. وإليك ثلاث عينات:

١ - حقائق دينية وأخلاقية وتاريخية.

رأينا من أمثلة المبادئ الأخلاقية، أن أي حماس أو أية معارف مبهمة عن الكتب المقدسة لا تستطيع أن تضمن للنبي العربي ﷺ هذا التوافق والتطابق العجيب بينها وبين تعاليمه، وقد يكون من المفيد أن نعقد مقارنة بين التوراة والقرآن عن صفات الله والملائكة والأنبياء وما وراء الكون... ولكن ذلك سيكون خروجاً عن دائرة هذا «المدخل»، ويكفى أن نقول إنه عندما يشترك هذان الكتابان فى الحديث عن موضوع واحد، فإن جوهر المعنى يتشابه بينهما بشكل يستلفت الأنظار، بحيث يكاد ينحصر الاختلاف في فروق طفيفة وثانوية، وكأن التوراة كانت تحت بصره دائماً، مع تميز القرآن باستقلال في لهجته واتزانه، وطريقته في عرض الدروس، واتجاهه نحو استخلاص العبر من كل عرض. ولقد كتب «جول دافيد» فى مقال بعنوان «توافقات واختلافات بين القصص

الديني في التوراة والقرآن » يقول إن الجوهر واحد، والاختلاف ليس إلا في الشكل، وفي تفاصيل طفيفة للغاية».

علماً بأن «الاختلاف» يكون في «التعارض والتناقض» وهو نادر جداً بين هذين الكتابين وقابل للتأويل. أما الحذف والزيادة فلا يسميان اختلافاً. ويعتمد المتشككون على اختلافات تافهة ليرفضوا الإسلام ككل. بينما المنطق يتطلب أن يكون موقفهم مغايراً. فعند اختلاف الرواة الموثوق بهم، نتوقف أمام نقط الاختلاف وحدها، إما لكي نعلق إصدار حكمنا، وإما لمحاولة البحث عن نوع من الربط يسمح لنا بتصحيح بعض الروايات بغيرها. والطريقة التي تتبع للتوفيق والتدرج بين الأناجيل الأربعة، يجب أن تتبع في دراسة المواعظ والوصايا الدينية التي تركها لنا جميع رسل الله. فهم جميعاً مقدسون ومنزهون، وقد مروا بتجربة الاتصال بعالم الغيب، وأن تطابق أقوالهم في جوهر تعاليمهم، ينبغي أن يفتح أعين الغافلين على صدقهم وصحة مبادئهم التي تناولت الحقائق العليا من زوايا مختلفة.

٢- حقائق علمية.

والقرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة يستخدم الحقائق الكونية الدائمة ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة - لا بغرض دراستها وفهمها فحسب - وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير. ونلاحظ

أن الحقائق التي يقدمها تتفق تماماً مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث. مثل منبع العنصر الجنسي للإنسان، ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٦ - ٧].

ومراحل الإنسان في بطن أمه، ﴿.. فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ [الحج: ٥].

وعدد التجويفات المظلمة التي يتم الخلق بداخلها، ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الزمر: ٦]، ومنشأ المخلوقات المائي، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وتكوين المطر، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[الروم:٤٨]، ودائرية السماء، ﴿.. يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ...﴾ [الزمر: ٥]، وكروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب، ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ [الأنبياء: ٤٤]، ومسيرة الشمس إلى نقطة معلومة، ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس: ٣٨]

وتعايش الحيوانات في جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، ووصف حياة النحل، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ..﴾ [النحل: ٦٨- ٦٩]

وثنائية النباتات والمخلوقات، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦]، والتلقيح بواسطة الرياح، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ولكن تميز القرآن وتفرده لا يقف عند ما يصرح به، بل إن إعجازه يمتد إلى ما يمتنع عن قوله أو يسقطه عن قصد.. (مثل الروح..).

والأمثلة السابقة تتضمن تطابقاً عجيباً بين التوضيح القرآني ذاته وبين التوضيح العلمي الذي ثبت بعد بحوث طويلة خلال العصور والأجيال التي انتهت إلى النتائج المقطوع بصحتها، بفضل إسهام رجال متخصصين كل في فرعه المحدود. هل في هذا مجرد صدفة؟ هل يمكن في عصر الجاهلية أن يتعرض رجل مجرد من أية معدات فنية، لعلوم التشريح والأرصاد الجوية والكونية والنفسية للحيوان والإنسان وفروع أخرى كثيرة (فضلاً عما اشتمل عليه كتابه من حلول في الأخلاق والدين والاجتماع)، وأن يعطينا في كل موضوع حقائق عالمية خالدة لا تتزعزع

من غير أن يترك في أي مجال أثرا ولو طفيفاً ينم عن عصره أو بيئته أو حتى خياله الشخصي؟

٣- تنبؤات المستقبل.

ولقد أعلن القرآن عن أحداث ستتم مستقبلاً، رأيناها تقع كما أعلن: مثل مواقف معارضيه الثلاثة (المخالفة، والميل للتوفيق، والمعاداة)، وتتابع مصائرهم بحسب كل موقف (مجاعة ورخاء وهزيمة).

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ * يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ * رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ * ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ * يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾[الدخان: ١٠-١٦] .

وأعلن قبل الهجرة بسنوات عن هزيمة قريش ببدر (التي وقعت في العام الثاني الهجري) في نفس الوقت الذي ينهزم فيه الفرس من الروم، ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ ﴾ [الروم: ٣-٥]، وضربة السيف التي تلقاها الوليد بن المغيرة على أنفه، ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [القلم: ١٦] .

وخلود دعوة القرآن على مر الزمان، ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الرعد:١٧] .

وقيام دولة الإسلام الفتية على الأرض، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا﴾ [النور: ٥٥] .

وعجز كل قوى الأرض عن القضاء عليها، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةً ثُمَّ يُغۡلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦]

وعن مستقبل المسيحية (الانشقاق والخلاف إلى يوم القيامة)، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤] .

وتشتت بني إسرائيل فى أقطار الأرض واضطهادهم وحاجتهم الدائمة إلى الحليف، ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] .

وتفوق المسيحيين على اليهود إلى يوم القيامة، ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] .

وهكذا تتضافر أحداث الماضي والحاضر والمستقبل فى مجال الواقع

لكي تتوافق مع عالم الأفكار وتؤيدها. بماذا نخلص من هذا كله؟..

إما أن الله يخدعنا يترك جميع الأدلة القاطعة تنحاز إلى كذاب مخادع ولا يترك لنا بصيصاً من الضوء يعاوننا على كشف أمره. وإما أن يكون هناك ميثاق معقود مع العناية الإلهية تولت بمقتضاه السهر على هذه الدعوة لعصمتها من كل زلل.

إن القرآن ليس إنتاجاً محلياً، لأن الحقائق التي يقدمها هي من النوع الذي يسهل على جميع العقول إدراكه واستخلاص الفائدة الأخلاقية منه. ولهذا نرى مكانه عالياً فوق كل الاعتبارات الجغرافية والعنصرية.. ولهذا لا يذكر عموماً أسماء الأشخاص والأماكن التي يتحدث عنها، وإنما يركز على العبر والدروس التي تفيد فى تربية الإنسانية.

إن هذا المنهج الكامل المتكامل الذي ينفرد به القرآن وحده هو في ذاته برهان وأي برهان. ولقد انتشرت الدعوة القرآنية فى البداية في الجزيرة العربية بين العرب ولكن غايتها هي أفراد البشرية أجمعين.

المراجع

أ – المراجع العربية :

ابن أبي داود	كتاب المصاحف	المطبعة الرحمانية بالقاهرة	١٩٣٦م
ابن سعد	الطبقات	٨ أجزاء طبع ليدن	١٣٣٥ هـ
ابن النديم	الفهرست	طبع ليبزيج	١٨٧٢ م
ابن هشام	سيرة الرسول	جزءان طبع صبيح بالقاهرة	١٩٢٩ م
أبو داود	السنن	٤ أجزاء طبع الخشاب بالقاهرة على هامش الزرقاني على الموطأ	١٣١٠ هـ
البخاري	الجامع الصحيح	٩ أجزاء طبع بولاق بالقاهرة	١٢٨٩ هـ
الترمذي	الجامع (أو السنن)	جزءان طبع بولاق بالقاهرة	١٢٩٢ هـ
دراز	النبأ العظيم	طبع المليجي بالقاهرة	١٣٥٢ هـ
الرازي	مفاتيح الغيب (المعروف بالتفسير الكبير)	٦ أجزاء طبع بولاق بالقاهرة	١٢٧٨ هـ
راستدوفاني	تاريخ القرآن والمصاحف	طبع بطرسبورج	١٣٢٣ هـ
الزنجاني	تاريخ القرآن	طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة	١٩٣٥ م

السيوطي	الاتقان فى علوم القرآن	جزءان المطبعة الأزهرية بالقاهرة (على هامش تفسير الجلالين)	١٣٤٤هـ
السيوطي	الجامع الصغير (مع زيادته التي ضمها إليه النبهاني وجمعهما تحت اسم الفتح الكبير)	٣ أجزاء طبع الحلبي بالقاهرة	١٣٥٠هـ
السيوطي	الدر المنثور	٦ أجزاء طبع الحلبي بالقاهرة	١٣١٤هـ
طاهر الجزائري	التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن	طبع المنار بالقاهرة	١٩٣٤م
العقاد	الله	طبع دار المعارف بالقاهرة	١٩٤٧م
مالك	الموطأ	جزءان بشرح السيوطى – طبع الحلبى بالقاهرة	١٣٤٩ هـ
مسلم	الصحيح (أو الجامع الصحيح)	٨ أجزاء طبع استانبول	١٣٣٤ هـ
النبهاني	الأنوار المحمدية	طبع بيروت	١٣١٢ هـ
النووي	تهذيب الأسماء واللغات	طبع لندن (جمعية نشر النصوص الشرقية)	١٨٤٧ م

***

ب- المراجع الأجنبية

La Bible	trad fr. par Louis Segond	Imprim. Univ. De Cambridge, 1932
L'Encyclopédie de l'Islam	Par les principaux Orientalistes	Leide 1908-1938
Andrae	Mahomet, sa Vie et sa Doctrine	Ed. Paris, Maisonneuve, 1945
Barthélemy-St-Hilaire	Mahomet et le Koran	Paris، Didier، 1865
Caussin de Perceval	Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Ma-homet et jusqu'à la ré-duction de toutes les tribus sous la loi muslumane	3 vol. Paris, 1847.
Chidiac	Voir Al-Ghazali "Réfutattion Excellente de la divinité de Jésus-Christ d'après les Evangiles traduit et commenté par Robert Chidiac	Paris، Leroux 1933
David	Analogies et Divergences entre les Légendes de la Bible et du Koran	Revue Socio. Et Hist. IVe série. T. Il., Mars 1884.
Draz	La Morale du Koran	Le Caire, Al-Ma'aref 1949.

Al-Falaki (Mahmoud)	Mémoire sur le Calendrier Arabe avant l'Islamisme et sur la Naissance et l'Age du Prophète Mohammed	Asiatique، Paris, 1858
Gaudefroy-Demombynes	Institutions Musulmanes	Paris, Flammarion, 1946
Gaudefroy Demombynes	L'Islam	Paris, Alcan. Extrait de: Histoire et Historiens, depuis cinquante ans (1876 - 1926).
Gautier	Moeurs et Coutumes des Musulmans	Paris Payot, 1931
Goldziher	Le Dogme et la Loi de l'Islam. Trad. Fr. Par Félix Arin.	Paris، Geuthner, 1920.
Huart	Une Nouvelle Source du Koran	Jour. As. Jullet-Août 1904.
Jeoffery (Dr).	Materials for the History of the Text of the Qur'an	Leiden 1937.
Jouguet	L'Impérialiasme Macédonien et l'Héllénisation de l'Orient	Paris, Renaissance du Livre, 1926.
Kazem (dit Mirza Alexandre).	Observation sur le Chapitre Inconnu du Koran	Jour. As. Mai 1843.
Lammens (Père)	Age de Mohammad	Jour. As. Mars-Avril 1911
Lammmens (Père)	Berceau de l'Islam à la Veille de l'Hégire	Rome, 1914.
Lammmens (Père)	L'Islam, Croyance et Institutions	Beyrouth, éd Catholique, 1926
Leblois	Le Koran et la Bible Hébraique	Paris, Fishbacher, 1887.

Massé	L'Islam	Paris، Colin, 1937.
Massignon	La mubâhala	Paris, Imp Admini-strative, 1944
Noeldeke	Geschichte des Quràns	Leipzig, 2e éd. 1909-1938
Padwik	Al-Ghazali and the Arabic Gospels	Rev. The Moslem World.1939.
Porter	Discours Préliminaire sur la Religion des Mahométants (trad. Fr., mise à la tête de l'Al-Coran de Du Ryer)	Amsterdam, 1775.
Renan	Mahomet et les Origines de L'Islamisme.	Revue des Deux Mondes Décembre 1851.
Sinclair Tisdall	The Original Sources of the Qur‘an	London, Society for Promoting Christian Knowledge, 1905.
Salâma (Dr).	Enseignment Islamique en Egypte	Le Caire, Imp. Nationale, 1939.
Sale (Georges).	Observation Historiques et Critiques sur le Maho-métisme (trad. Fr, mise à la tête de l'Al-Coran de Du Ryer).	Amsterdam, 1775
Schwally	See Noeldeke, Geschichte des Qur'ans.	Leipzig, 2e éd, 1909-1938.

***

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	**مقدمة المختصر...٥**
٤	**ملخص مقدمة المؤلف...٧**
٧	**الباب الأول: حقائق تاريخية أولية ٩**
٨	الفصل الأول: حياة الرسول ﷺ قبل البعثة ١٣
٢٠	الفصل الثاني: كيف جمع نص التنزيل الحكيم ٢٧
٢٩	الفصل الثالث: كيف تم تبليغ المبدأ القرآني إلى العالم ٣٧
٤٣	**الباب الثاني: القرآن من خلال مظاهره الثلاث الديني والخلقي والأدبي ...٥٣**
٤٤	الفصل الأول: الحق أو العنصر الديني ٥٧
٥١	الفصل الثاني: الخير أو العنصر الأخلاقي في القرآن ٦٥
٧٦	الفصل الثالث: الجمال أو الجانب الأدبي ٨٧
٨٤	**الباب الثالث: المصـدر الحقيقي للقرآن ٩٧**
٨٧	الفصل الأول:البحث عن مصدر القرآن في الفترة المكية ١٠١
١٠٠	الفصل الثاني:البحث عن مصدر القرآن في الفترة المدنية ١١٧
١١٣	خاتمة الباب الثالث ١٣٣
	المراجع ١٤٧
١٢٥	أ – المراجع العربية ١٤٧
١٢٦	ب – المراجع الأجنبية ١٤٩
١٢٨	**المحتويات ١٥٢**